خلاصة العتاد
في
مواجهة الإلحاد



أحمد خالد الطحان

شبكة الألوكة
www.alukah.net

خلاصة العتاد في مواجهة الإلحاد

(أول بحث تأصيلي لقضية الإلحاد)

إعداد

أحمد خالد الطحان

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(الأنعام ١٦٢/١٦٤)

قال الإمام الشافعي رحمه الله

إن للعقل حداً ينتهي إليه، كما أن للبصر حداً ينتهي إليه

المقـــدمـــة

الحمد لله الذي خلق العباد ، وأبان لهم صحيح الاعتقـــاد، وأمـــرهم بالتوحيـــد الخالص والإفراد، وحَذَّرهم من دُرُوب الشرك و الإلحاد، تعالى ســبحانه عـــن الشُّرَكاء الأنْدَاد، واتخاذ الصاحبة والأولاد، والصلاة على النبي المصطفي والرسول المجتبى خير العباد ، الهادي إلى سبيل الرشاد ، وأول شفيع ومُشفَّع يوم المعـــاد ، وعلى آله وصحبه أفضل الصحب وخير الأجناد، فُرســـان الإســـلام الأجْـــواد، ورهبان الليل العُبَّاد ، الذين شادوا محاتد الأمجاد، وفاقوا مفاخر الملوك الأســـياد ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم التناد ، يوم يقوم الأشهاد .

أما بعد :

ففي زمن الفِتَن يكون العلم خير زاد ،ويُلْتمس لدى الحاضر والبـــاد، وتُبـــذل في سبيله حُبَيْبات الأكباد،وشِغَاف الفؤاد ، وقلائـــد الأجيـــاد،وفي عـــصر التِّقانـــة والمعلومات ، لم يكن يخطر ببالٍ أن يَعُم الوَبَال وينتشر الفساد ، حـــتى نـــسمع في بلاد المسلمين من يَنْبُو عن الوحدانية، بل ويدعو إلى التَّغَوُّل في الزندقة و الإلحاد ، تحت شعارات .. بل هي للكفر رايات: التعددية، والحرية، والعلمانية، والشك في وجود خالق الأرض والسماوات .. زعموا ..خابوا وخسروا كل مراد !!

في زمان العلم وتزايد أدلة وإثباتات وجود الله تعالى بالعقل –لذوي العقل– تُلهينا هذه الصَرَخات الصَّارِخَات عن كثير الآهات والأنّات التي تنال من جسد الأمـــة المسلمة وتمارش وِحْدتها في مختلف الوِهَاد والبقاع، وشتى الآفاق والأصْقَاع .

ولكن لا بد مما لا بد منه ، فالأمر جَلَل ،ربما أدى بعامر الديار إلى خرابٍ وطَلَل، فهذه هُنَيْهة نُلْجم فيها –بإذن الله– الفالتين ، المارقين عن أنوار وهدايات الدين ، الوالجين غياهب معدومة الرغائب ، بل طريق الأشـــقياء أشـــقاء الـــشيطان ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِـــزْبَ

الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (المجادلة:١٩) ،وفي أتّىّ البيان ما يغني عن إطالة الكلام في هذا المقام.

ولقد تعددت الأسباب تعدد ذرَّات السرابْ، فكان هذا البحث كهَلْهَالِ الرَّبَابْ[1] ولا يخفي على مسلم – ناهيك أن يكون مسلما غيورا- الحاجة المُلِحة لهذا الموضوع في هذا الوقت ، حيث تَعدُّد الدعوات وكثرها كثرة مخيفة مُقلقة، وانتشار المواقع والمنتديات على شبكة المعلومات، وإفراد الصفحات على مواقع التواصل الاجتماعي ، وتخصيص البرامج الحوارية حلقات كاملة لعرض قضايا الإلحاد ، ثم جاء خبرٌ عمَّ وطمّ، وأقلق وأغمّ ، ذلك البحث الذي نشره معهد غالوب الدولي وصدر تحت عنوان: "مؤشر عام حول الدين والإلحاد" ونشرته صحيفة الواشنطن بوست وجاء فيه تزايد نسبة الإلحاد في معظم الدول العربية، بل جعلوا المملكة العربية السعودية الأولى في نسبة الإلحاد بين الدول الإسلامية...!!! وجاء فيه أن نسبة الملحدين في المملكة العربية السعودية " أرض الرسالة المحمدية " تضاهي نظيرها في بلد أوروبي متقدم مثل بلجيكا ، و أظهر هذا الاستطلاع أن الصين يعتلي فيها الإلحاد أعلى درجات السُّلم، كذلك ارتفاع نسبة الإلحاد في البلدان الشيوعية السابقة وبلدان في إفريقيا مثل جنوب إفريقيا، غير أن المفاجأة الكبرى هي المرتبة التي حصلت عليها المملكة العربية السعودية بنسبة ست في المائة = ٦% ، وهي بذلك تعد أول بلد في العالم الإسلامي يتجاوز فيه الإلحاد حاجز الخمسة في المائة(٥ %) مقابل (٧٥ %) من المتدينين و(١٩%) من السعوديين يرون أنفسهم غير متدينين...!!!

ويوضح التقرير ارتفاع نسبة الإلحاد بين سكان السعودية على الرغم من أن المملكة تعد واحدة من أكثر البلدان الإسلامية حرصا على تطبيق الشريعة والمحافظة على تعاليم الرسالة المحمدية..!! ، وهي نسبة تفوق تركيا وتونس

---

(1) هلهال الرباب : أي السحاب الذي يحمل المطر الرقيق النافع

العلمانيتين..!! وأجرى البحث معهد غالوب الدولي، وذلك عام ٢٠١٢ في (٥٧) بلدا وشمل آراء خمسين ألفا من المستجوبين، وصدر تحت عنوان: "مؤشر عام حول الدين والإلحاد"، وإجمالا، يعتقد (٥٩%) من المستجوبين عبر العالم أنهم دينيون مقابل (٢٣%) يرون أنفسهم غير دينيين و (١٣%) يؤكدون أنهم ملحدون، غير أن هذه النسب العامة تختلف من بلد لبلد آخر.

كما توقف المسح عند الربط بين الفقر وظاهرة التدين وأظهر أن الدول الفقيرة يرتفع فيها التطرف بنسبة (١٧%) مقارنة مع البلدان الغنية، وتحتل غانا رأس قائمة المتدينين بنسبة (٩٦%) والعراق المرتبة السابعة من حيث التدين (٨٨%) وتونس المرتبة الثالثة والعشرين (٧٥%) متقاسمة نسبة التدين مع المملكة العربية السعودية بنفس النسبة، في حين تحتل فلسطين المحتلة (ذكر التقرير غزة والضفة الغربية و لم يذكر اسم فلسطين على اعتبار أنها ليست دولة !!) المرتبة ٣١ بنسبة (٦٥%) ولبنان المرتبة ٣٢ بنسبة (٦٤%) وفي المرتبة الأخيرة تظهر الصين كأقل البلدان تدينا على المستوى العالمي بنسبة (٤٧%).

وتوضح المؤسسة أن مؤشر التدين يمثل النسبة المئوية للذين يرون أنفسهم متدينين ومؤشر الإلحاد يحيل إلى نسبة من يرون أنفسهم ملحدين مقتنعين.

ورصد المؤشر كذلك ارتفاع نسبة الإلحاد في باكستان من ١% إلى ٢% ما بين ٢٠٠٥ و٢٠١٢ في حين انخفض الإلحاد في ماليزيا من ٤% عام ٢٠٠٥ إلى الصفر عام ٢٠١٢م .

لهذا وغير هذا كثير من الأسباب، رأيت لزاما لازما لا ينفك أن تكون وقفة جادة لمعرفة الإلحاد معنىً ومضمونا، ووقاية وعلاجا،وقد ركزتُ فيه على الجانب التأصيلي للموضوع لعدم وقوفي على من تناوله من قبل.

ومعرفة أصل الإلحاد وجذوره يفيد في توصيف الحالة الإلحادية وتشخيصها بدقة وموضوعية، وبالتالي يفيد في علاجها، كما أن معرفة أنواع الإلحاد المتعددة (كما

ذكرها) يجعلنا لا نتعامل معه بشكل سطحي، أما الشبهات فقد انبرى لها خلق كثير وإن كان الأمر يحتاج إلى مزيد ومزيد، كما يحتاج إلى تضافر الجهود من الجميع ، عسى أن نردع أو نوقف جموع المتحفزين، فبالله وحده أستعين، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم.

خطة البحث

يشتمل البحث على: مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة

المقدمة: وتشتمل على:

١- أهمية الموضوع وخطورته

٢- خطة البحث

التمهيد: تحرير معنى الإلحاد

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الإلحاد

المطلب الثاني: فوائد من التعريف

المبحث الأول: أنواع الإلحاد

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول:إلحاد التكبر

المطلب الثاني: إلحاد الإشراك

المطلب الثالث: إلحاد الفكر

المطلب الرابع: إلحاد العقل

المطلب الخامس:إلحاد الجهل والرياء

المبحث الثاني: الإلحاد المعاصر وبواعثه:

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: العلمانية والإلحـــاد

المطلب الثاني: الماسونية والإلحاد

المبحث الثالث: عقــائد الملحـــدين وأركان الإلحاد

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول:عقائد الملحدين

المطلب الثاني: أركان الإلحاد الأساسية.

المبحث الرابع : مواجهـــة الإلحـــاد

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الوقاية من الإلحاد

المطلب الثاني: الرد على الملحدين

الخاتمة: وتشمل أهم النتائج والتوصيات.

بقي أخيرا أن أشير إلى أني لم أتكلم في بعض الموضـــوعات ذات الـــصلة طلبـــا للإيجاز، ومنعا للإسهاب [1] ، وقبل الشروع في الموضوع أقول لك ما قال الحافظ ابن حجر لقارئه:

يا سيدا طـــالِعْـــهُ إن راقَ معناه فَعُدْ

وافتح له باب الرِّضَا وإن تجِدْ عَيْبا فَسُدْ

هذا و أسأل المولى في عُلاه أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، إنه نِعـــم المولى ونعم النصير، والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على الـــنبي محمـــد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(1) مثل موضوعات : التنصير ، والاستشراق، والاحتلال (الاستعمار) ، وهي موضوعات ذات صلة وثيقة بموضوعنا هذا إلا أن بحوثا أخرى تناولتها بالبحث والدراسة المستفيضة، ومن أهمها كتـــاب: أباطيل وأسمار للأستاذ محمود محمد شاكر ، وله أيضا : رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، وكتاب أجنحة المكر الثلاثة للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني ، وله أيضا غزو في الصميم ..وغيرها كثير.

التمهيد: تحرير معنى الإلحـــاد

المطلب الأول: تعريف الإلحاد

تحرير المعنى هو نصف الفهم ،لذا من المهم أن نحدد مفهوم اللفظ لغة واصطلاحا، وكلمة الإلحاد كلمة عربية فصيحة ، قال ابن فارس : اللام والحاء والدال أصـــلٌ يدلُّ على ميل عن استقامة. يقال: أَلْحَدَ الرجل، إذ مال عن طريقة الحقِّ والإيمان. وسُمِّي اللَّحدُ لأنه مائل في أحد جانبي الجَدَث. يقال: لَحَدْت الميِّـــتَ وألحـــدت. والمُلْتَحَد: الملجأ، سمِّي بذلك لأن اللاجئ يميل إليه.[1]

قال الأزهري : معنى الإلحاد في اللغة: الميل عن القصد. وقال الليث: : ألحـــد في الحرم إذا ترك القصد فيما أمر به ومال إلى الظلم وأنشد:

لما رأى الملحد حين ألحما   صواعق الحجاج يمطرن دما[2]

فالإلْحَاد : العُدُول عن الاستقامة والانحراف عنها

وأَلْحَدْتُ : مَارَيْتُ وجَادَلْتُ ، قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ (الحج ٢٥) أَي انحرافا بظلم ، وقد أَلْحَد في الحَرَمِ : تَرَكَ القَصْدَ فيما أُمِرَ به ومـــالَ إلى الظلم ، وألحد في الحرم : أشرك بالله تعالى ،وقيل : الإلحاد فيه : الشك في الله ، وأصل الإلحاد الميل والعدول عن الشيء ، و لاحد فلان فلانا : اعوج كل منهما على صاحبه ومالا عن القصد . والملتحد : الملتجــأ و الملجــأ ، أي لأن اللاجئ يميل إليه ، قال تعالى :"ولن أجد من دونه ملتحدا" [3]

([1]) ينظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٢٣٦)

([2]) ينظر : تهذيب اللغة الأزهري (٢/ ٧٣)

([3]) ينظر : المخصص ـــ لابن سيده (٢/ ٧٨) ، تاج العروس من جواهر القاموس (٩/ ١٣٥)

المطلب الثاني: فوائد من التعريف

إذا كان التعريف العام للإلحاد يعني : الميل والعدول عن الطريق القويم ، فهذا يعني أن كل تَرْكٍ للدين وهَجْر لأحكامه هو نوع إلحاد ، ومن ثم فالإلحاد يشمل كل أنواع الكفر والشِّرك بالله تعالى، والميل والحيدة عن أوامره وأحكامه جل وعلا ، والتجرؤ علي نواهيه سبحانه.

وهذا المعني هو الذي جاء في كتاب الله تعالى في قوله جل شأنه : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ (الحج ٢٥)

قال الإمام الطبري رحمه الله: "يقول تعالى ذِكْرُه: ومن يرد فيه إلحادا بظلم نذقه من عذاب أليم، وهو أن يميل في البيت الحرام بظلم ... واختلف أهل التأويل في معنى الظلم الذي من أراد الإلحاد به في المسجد الحرام، أذاقه الله من العذاب الأليم، فقال بعضهم: **ذلك هو الشرك بالله وعبادة غيره به** ... وقال آخرون: **هو استحلال الحرام فيه أو ركوبه** ... عن ابن عباس، قوله:﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الحج: ٢٥) يعني أن **تستحل من الحرام ما حرم الله عليك من لسان أو قتل**، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له عذاب أليم ... وقال آخرون: بل ذلك احتكار الطعام بمكة ... وقال آخرون: بل ذلك **كل ما كان منهيا عنه من الفعل**، حتى قول القائل: لا والله، وبلى والله ... وأولى الأقوال التي ذكرناها في تأويل ذلك بالصواب القول الذي ذكرناه عن ابن مسعود وابن عباس، من أنه معني بالظلم في هذا الموضع **كل معصية لله**، وذلك أن الله عَمَّ بقوله ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ (الحج ٢٥) ولم يخصص به ظلم دون ظلم في خبر ولا عقل، فهو على

عمومه. فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: ومن يرد في المسجد الحرام بأن **يميل بظلم، فيعصي الله** فيه، نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له. " (١)

فمجيء كلمة الظلم بعد كلمة الإلحاد أبانت معناها ومرماها من كونها: **الميل عن الحق إلى الباطل والضلال** .

فكل ملحد هو مائل عن الحق إلى الباطل، وليس من المكرمات أو المفاخر أن ينتسب أحد للإلحاد، بل مَعَرَّة بغير علم وضلال وخسران، ومن قال عن نفسه: ملحد = فالمعني ضال كما تبين.

وقال الله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (لأعراف:١٨٠)

قال الإمام الطبري رحمه الله :" وأما قوله: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ (لأعراف:١٨٠) ، فإنه يعني به المشركين، وكان إلحادهم في أسماء الله، أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها "اللات" اشتقاقا منهم لها من اسم الله الذي هو "الله"، وسموا بعضها "العزى" اشتقاقا لها من اسم الله الذي هو "العزيز" (٢)

وقد نقل عن ابن عباس وقتادة أن **الإلحاد هو التكذيب والشرك** وقوله "يلحدون" أي يشركون ثم قال :" وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والجور عنه، والإعراض. ثم **يستعمل في كل معوج غير مستقيم**، ولذلك قيل للحد القبر: لحد، لأنه في ناحية منه، وليس في وسطه " (٣)

فكلمة الإلحاد جاءت في القرآن بمعنى الشرك والتكذيب

(١) ينظر :جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٨/٥٩٥ وما بعدها

(٢) ينظر :جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٢٨٢)

(٣) ينظر :جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٢٨٣)

وقد وردت كلمة الإلحاد ومشتقاتها في القرآن في مواضع عديدة كما في،سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (النحل:١٠٣)

سورة فصلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (فصلت٤٠)

وكلمة الإلحاد في القرآن لا تأتي بمعنى الإلحاد بالمفهوم الحالي (المعاصر) المتعارف عليه. وكذلك الشخصيات المذكورة في القرآن من الذين كانوا لا يؤمنون بالرسالة النبوية كانت شخصيات غير ملحدة (بالمفهوم المعاصر) بل كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة "مشركون" فرغم اعتقادهم بوجود الإله الأوحد فإنهم كانوا في نفس الوقت يؤمنون بأن التماثيل التي كانوا يعبدونها باستطاعتها الشفاعة لهم عند الإله الأعظم :﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (العنكبوت ٦١) وفكرة إنكار وجود الخالق من الأساس فكرة مستبعدة تماما في كل العصور، لأن الإنسان فُطِر على وجود إله خالق، وهذه حقيقة لا ينكرها حتى الملحد ، لكنه يعاند ويكابر ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ (النمل:١٤)، يقول المؤرخ الإغريقي بلوتارك: "لقد وُجِدَت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور، ومدن بلا مدارس، ولكن لم توجد أبدا مدن بلا معابد".[1]

ولقد اغتر معظم الباحثين بكتابات المستشرقين عن الإلحاد وساروا في ركابهم فأصبحوا يرددون : " إن كلمة الإلحاد هي ترجمة لكلمة إغريقية قديمة وهي atheos وكانت هذه الكلمة مستعملة من قِبَل اليونانيون القدماء بمعنى ضيق

---

(١) ينظر : مجلة الوعي الإسلامي الكويتية العدد ٥٥٧ نوفمبر-ديسمبر ٢٠١١، مقال بعنوان : هل حقا الدين أفيون الشعوب

وهو عدم الإيمان بإله وفي القرن الخامس قبل الميلاد تم إضافة معنى آخر لكلمة إلحاد وهو إنكار فكرة الإله الأعظم الخالق "

ثم قسموا الإلحاد قسمين:

" الأول : إلحاد قوي أو إلحاد موجب وهو نفي وجود إله(إلحاد نفي) .

الثاني : إلحاد ضعيف أو إلحاد سالب وهو عدم الاعتقاد بوجود إله.

فالفرق بين الملحد الموجب والسالب – عندهم – هو أن الملحد الموجب ينفي وجود الله تعالى، وقد يستعين بنظريات علمية وفلسفية لإثبات ذلك، بينما الملحد السالب يكتفي فقط بعدم الاعتقاد بالله نظرا لعدم قناعته بالأدلة التي يقدمها المؤمنون." [1]

وهذا كله كلام – لو ناقشناه بمبدأ الملحدين المادي – لا زمام له ولا خطام، ولا دليل عليه ولا برهان ،بل هو (تنظير هروب) يوهمون الناس بأن لهم تقسيمات ونظريات حتى يبدو الأمر أشبه بالعلم ، لكنهم في الواقع يؤصلون لجهل كثير منهم حقيقة الإلحاد فيصفونه بالملحد السالب .!!

والحق الذي لا مِرية فيه عندنا نحن المسلمين : أن الإلحاد ظهر قبل اليونانيين القدماء بل وقبل كل القدماء الأقدمين ، نعلمه من ديننا علم اليقين، وقد سجل القرآن الكريم معالم الإلحاد الأولى وحكاها تفصيلا وتحذيرا فقال رب الأرباب سبحانه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة٣٤) وقال تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ (الكهف ٥٠)، وقال جل وعز:

---

[1] هذا هو التقسيم السائد والمعروف للإلحاد عند كل الدارسين ، ولا أعلم أحدا سبقني في التقسيم الذي ذهبت إليه للإلحاد.

﴿فَسَجَدَ الملائِكَةُ كُلُّهُم أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِـنَ الْكَـافِرِينَ﴾ (ص ٧٤،٧٥)

فإبليس الملعون هو أبو الملحدين ففي آيات البقرة وص " وكان من الكـافرين " وفي آية الكهف " ففسق عن أمر ربه " فالفسق والكفر هما أصل الإلحاد وعينه وهذه هي بذرة الإلحاد الأولى .

والنَّابِهُ لا يَأْبَهُ لكلام المستشرقين عن الإلحاد، لأنهم ملحدين !! وحدود علمهـم فَلْسَفَات اليونانيين القدماء والإغريق ، ومعظمها تُرَّهات بَتْرَاء ،عَرْجـاء عميـاء شوهاء، لا اتصال لها ولا إسناد ، ولو اتصل إسنادها ، فقد كفانا خبر الـسماء عما تحت أديمها .

كما أن فلاسفة اليونان والإغريق هم من أسسوا لمنهج الشك الإلحادي ، فكـانوا يشُكُّون في الثوابت والمُسَلَّمات، شك من أجل الشك ، فكان الشك عندهم نوع رياضة من رياضات العقل ، وسوف يتبين فساد ذلك في أنواع الإلحاد.

فإبليس هو أول من ألحد وجاء الوصف في القرآن الكريم بالكفر والفِسْق ،

والكُفر لغة: الستر قال ابن فارس في مادة (كفر) : الكاف والفاء والراء أصـل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية ، وإذا أطلق الكفر في الـدين فيعني الجحود والعصيان .

قال الإمام الطبري رحمه الله :" معنى الكفر في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فإنـه الجحود. وذلك أن الأحبار من يهود المدينة جحدوا نبوة محمد صـلى الله عليـه وسلم وستروه عن الناس وكتموا أمره، وهم يعرفون كما يعرفون أبناءهم.

وأصل الكفر عند العرب: تغطية الشيء "(١)

أما الفسق فهو الخروج والعدول لغة واصطلاحا، قال الإمام الطبري رحمـه الله:" وقوله: ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ يقول: فخرج عن أمر ربه، وعَدَلَ عنه ومَالَ ...

---

(١) ينظر :جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١/٢٥٥)

وكذلك الفِسْق في الدين إنما هو الانعدال عن القصد، والميل عـــن الاســـتقامة ، ويحكى عن العرب سماعا: فسقت الرُّطَبة من قشرها: إذا خرجت منه، وفـسقت الفأرة: إذا خرجت من جحرها" [1]

ولنكن دائما على ذُكْرٍ لمعنى الإلحاد وأنه : الميل والعدول عن الطريق القويم، وأن الكفر : الجحود والإنكار، والفسق هو : الخروج والعدول

وقد ذكر الله تعالى أن إبليس قال: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُـمْ صِـرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَـنْ أَيْمَـانِهِمْ وَعَـن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (الأعراف ١٦،١٧)

والطريق القويم هو صراط الله المستقيم وقد قال إبليس:﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِـرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

فكان أول الملحدين وأول من دعا إلى الإلحاد، وأَمَالَ العباد عن الطريق المـستقيم مستعينا بذريته من الجن ومن أطاعه من الإنس فتشيطنوا وأصبحوا شياطين الإنس ﴿ شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعـام ١١٢)

فالإلحاد عمليا بدأه إبليس لكنه لم يُسَمَّى إلحادا بل سمي: كُفرا، وفسوقا، وإبـاءً لأمر الله تعالى، واستكبارا، وضلالا... وسمي فيما بعد زندقة وإلحادا .

وكلمة زندقة تحمل في الإسلام معني الكفر والضلال، وأقدم نص وقفتُ عليه فيه هذه الكلمة ما رواه الطبراني مرفوعا أن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال :"مـا كانت زندقة إلا كان بين يديه التكذيب بالقدر" [2] وإن كان هذا الحديث فيـه ضعف كما ذكر محقق المعجم الشيخ حمدي عبد المجيد السلفي رحمه الله وأسكنه

---

(١) ينظر :جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٢/١٨)

(٢) ينظر :المعجم الكبير ١٨٦/٦ رقم (٥٩٤٤)

فسيح جناته إلا أن رواية الإمام الطبراني لهذه الكلمة دال على تـــداولها في هـــذا الزمان المبكر (توفي الطبراني سنة ٣٦٠ هـــ)

و هذه الكلمة لها أصول فارسية وأطلقت أول ما أطلقت على مُنكري الغيبيات ، ومن كان لا يؤمن بالآخرة ووحدانية الخالق سبحانه ، وانتشرت في أقوال العلماء وخاصة ردودهم على المتكلمين فنجدها موجودة بكثرة في كلام الأئمة: الشافعي وأحمد ويحيى بن معين وتلاميذهم ، وكان هذا الوقت هو بداية انتـــشار الفكـــر المنكر للغيبيات (الإلحادي) ، نتيجة ترجمة كتب أصـــحاب الملـــل والفلـــسفات الفارسية واليونانية ..وغيرها.

يقول ابن منظور في لسان العرب مادة (زندق) : الزنديق : القائل ببقاء الدهر ، فارسي معرب، وزندقته أنه لا يؤمن بالآخرة ، ووحدانية الخالق .

وكما يقول علماء الأصول : لا مشاحة في الاصطلاح ، فالمعنى ثابت معلـــوم ، سميناه إلحادا أو كفرا أو فسوقا أو ضلالا أو زندقة فالمعني : عدم الإيمان.

وهذا ما ذكره أحد الملحدين المعاصرين حيث قال : أنا لا أنكر وجـــود إلـــه ، ولكني لا أؤمن بوجود إله .!!

فالإلحاد وصف لأي موقف فكري لا يؤمن بوجود إلـــه، لأن شـــرط العلـــم – عندهم– هو أن يكون المعلوم قضية منطقية صحيحة، مثبتة، ويمكن الاعتقاد بهـــا، ولما كان ادعاء وجود إله – حسب اعتقاد الملحد– غير مثبت فـــإن التـــصديق بوجود إله ليس عِلْما . وإنما هو نمط من الإيمان الشخصي غير قائم على أدلة وما يـــُقدم بلا دليل يمكن رفضه بلا دليل. ومن هذا فإن الإلحاد – عند الملحـــدين – هو موقف افتراضي بمعنى أنه ليس ادعاء وإنما هو جواب على ادعـــاء بـــالرفض.

ومن ثم يُعرَّف الإلحاد بأنه: عدم الإيمان بوجود إله وليس إنكارا للأدلة العلميـــة والعقلية ونحوهما على وجود صانع واعي للكون والحياة ومستحق للعبادة (الله).

فالإلحاد ليس إنكارا لكنه عدم إيمان وهذا يتفق مع تعريف ابن منظور للزنــديق حيث قال: (وزندقته أنه لا يؤمن بالآخرة ، ووحدانية الخالق) لكنه لا يتطابق مع فعل إبليس وقوله حيث قال :﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَــوْمِ يُبْعَثُــونَ ﴾ (الحجــر:٣٦) وقال: ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (الإسراء: ٦٢) فقوله: " رَبِّ "،وقوله: " إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " دال على أنه يؤمن بــالرب ويــؤمن بالآخرة يوم القيامة وهذا يكشف عن أنواع ودرجات مختلفة للكفر والإلحاد

المبحث الأول: أنـــواع الإلحـــاد

معلوم لدى أهل الإيمان أن أنواع التوحيد ثلاثة : توحيد الربوبية وتوحيد الأُلوهية وتوحيد الأسماء والصفات .

فالربوبية : متعلقة بالأمور الكونية كالخلق ، والإحياء ، والإماتـــة ، ونحوهـــا ، ويشترك فيها المسلم والكافر

والأُلوهية : متعلقة بالأوامر والنواهي من الواجب ، والمحرم ، والمكروه ، وهـــذه يتميز بها المسلم عن الكافر

أما توحيد الأسماء والصفات فهو شامل للنوعين معا (توحيد الربوبية، وتوحيـــد الأُلوهية)؛ وذلك لأنه يقوم على إفراد الله تعالى بكل ما له من الأسماء الحـــسنى والصفات العلى التي لا تنبغي إلا له سبحانه، والتي من جملتها: الـــرب، الخـــالق، الرزاق، وهذا هو توحيد الربوبية، وكذلك من جملتها: الله، الغفـــور، الـــرحيم، التواب، وهذا توحيد الأُلوهية

و لا يكمل لأحد توحيده إلا باجتماع أنواع التوحيد الثلاثـــة وهـــي: توحيـــد الربوبية، والأسماء والصفات، والأُلوهية ، فلا ينفع توحيد الربوبيـــة دون توحيـــد الأُلوهية ، ولا يقوم توحيد الأُلوهية دون توحيد الربوبية، ولا يستقيم توحيد الله في ربوبيته و ألوهيته دون توحيده في أسمائه وصفاته.

والعبادة : اعتقاد وقول وعمل؛ فمن اعتقد و لم يقل و لم يعمل كان مشركا، ومن اعتقد وقال و لم يعمل كان منافقا ، ومن اعتقد وقال وعمل كان مؤمنا .. أمـــا الملحد فهو لا يعتقد ابتداءً، لأن الإلحاد كما تقرر: عدم إيمـــان، والإيمـــان هـــو الاعتقاد.

ومن عجائب الملحدين المعاصرين أنهم لا يعلمون كثيرا عن الإلحاد، ومعظمهم – دون مبالغة– لا يعلمون معنى الإلحاد فالكثرة الكاثرة منهم يتبعون أهـــواءهم، أو

من يملئون عقولهم ويُزينون لهم أفكارهم ، والقلة النادرة منهم يظنون أنهم يُعملون عقولهم (اربط هذا الكلام بمعاني الكلمات اللَّحد : القبر، والإلحاد : الميل عن الصواب، وكَفَرَ : ستر وغطَّى ، والزندقة لغة تعني : الضيِّق) لتعلم أن الذين يظنون أنهم يُعملون عقولهم هم في الحقيقة يضيِّقون عليها ويغطونها ولا يُعملونها كما ينبغي ، وإمامهم في إعمال العقل تضييقا وفسادا إبليس لعنه الله ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (لأعراف ١٢) ظن بنفسه الخيرية و لم يكن كذلك ، وهم أيضا يظنون بأنفسهم ذلك وليسوا كذلك، وهذا يكشف لنا أول أنواع الإلحاد وهو: إلحاد التكبر.

المطلب الأول:إلحاد التكبر

هذا أقدم وأول أنواع الإلحاد ظهورا، وصاحب هذا النوع يُقر بوجود إله إما ابتداءً كإبليس أو انتهاءً كفرعون، فقد يكون مؤمنا بل ومجتهدا في الطاعة ثم يأتيه الإلحاد من باب الكِبْر والغرور كحال إبليس الرجيم.

فقد كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم: الجن، خُلقوا – من بين الملائكة – من نار السموم. وكان اسمه: عزازيل وقيل : الحارث ، وكان خازنا من خزان الجنة وقد خُلقت الملائكة جميعها من نور غير هذا الحي، خُلقوا من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت ، وكان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكانوا سكان الأرض، وكان هو رئيس ملائكة سماء الدنيا، يسوس ما بين السماء والأرض، ومن أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم عِلْما، فذلك دعاه إلى الكبر .

و العرب تقول: ما الجن إلا كل من اجتن فلم يُرَ. وأما قوله تعالى :"إلا إبليس كان من الجن" أي كان من جن الملائكة،(حي من أحياء الملائكة)، وقيل كل الملائكة في اللغة جن ، وذلك لأنهم اجتنوا فلم يروا. وقد قال الله جل ثناؤه:

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ (الصافات ١٥٨)، وذلك لقول قريش: إن الملائكة بنات الله، فيقول الله: إن تكن الملائكة بناتي فإبليس منها، وقد جعلوا بيني وبين إبليس وذريته نسبا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : "إن من الملائكة قبيلا يقال لهم: الجن، فكان إبليس منهم، وكان إبليس يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطانا رجيما" (١)

وإبليس"إفعيل"، من الإبلاس، وهو الإياس من الخير والندم والحزن، أبلسه الله من الخير كله، وجعله شيطانا رجيما عقوبة لمعصيته .

فإبليس عرف الله ابتداءً لكنه اغتر بما أعطاه الله من النِّعَم والمُلْك لذا قال الله عنه ﴿ففسق عن أمر ربه ﴾ أي خرج عن طاعة ربه وهذا يعني كونه طائعا قبل ذلك إلا أن نسبه من الملائكة : قبيلة الجن وخزانة الجنة، ومكانته فيهم وما آتاه الله من المُلك جعله يظن بنفسه الخيرية فاستكبر وكان من الكافرين .

ولهذا شواهد من أفعال البشر استكبروا فكفروا ، كما فعل نمروذ بن كنعان وهو أول مَلِك تجبر في الأرض، وهو صاحب الصرح ببابل، وهو الذي ﴿ حَاجَّ إبرهيم فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ (البقرة ٢٥٨)

قال الإمام الطبري رحمه الله :" فكان الناس يخرجون فيمتارون من عنده الطعام، فخرج إبرهيم(٢) يمتار مع من يمتار، فإذا مر به ناس قال: من ربكم؟ قالوا: أنت حتى مر إبرهيم، قال: من ربك؟ قال: الذي يحيي ويميت؟ قال: أنا أحيي وأميت

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن (١/٥٠٧)

(٢) الأسماء: إبرهيم ، وإسمعيل، وإسحق ، وسليمن، وقرون ، وهرون ،.. ونحوها من الأسماء الأعجمية كتابتها بدون الألف أصح لغة من كتابتها بالألف ، وتحذف استثقالا لها كما قال ابن قتيبة في أدب الكاتب ، باب :حذف الألف من الأسماء وإثباتها ص ٢٢٨ ، وقد سِرْتُ على ذلك في البحث كله .

قال إبرهيم: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الـــذي كفر. قال: فرده بغير طعام... كان بالموصل والناس يأتونه، فإذا دخلـــوا عليـــه، قال: من ربكم؟ فيقولون: أنت " (١)

ومثله فرعون موسى تكبر وتجبر على بني إسرئيل وقال:﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِـــصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (الزخرف٥١) وقال :﴿ يَـــا أَيُّهَـــا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَـــلْ لِـــي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُـــودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴾ (القصص ٣٨)

فهذا الذي تكبر واستكبر هو وجنوده لما رأى الموت آمن حيث لم ينفعه إيمانه : ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسرئيل وَأَنَـــا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس ٩٠) ، فلم ينفعه أن كان له ملك مصر ، ولم تنفعه الأنهار التي تجري من تحته ، والله غالب على أمره .

وعلى نهجه سار قرون فقد كان مِنْ مَن آمن بموسى عليه السلام وكان ابن عمه قال تعالى:﴿ إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْـــرَحْ إِنَّ اللَّـــهَ لا يُحِـــبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الـــدُّنْيَا وَأَحْـــسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾ (القصص ٧٦ -٧٨)

وكان قرون يسمى المنور من حسن صوته بالتوراة، فبغى عليهم أي: تجاوز حده في الكبر والتجبر عليهم، وكان بعضهم يقول: كان بغيه عليهم زيادة شبر أخذها في طول ثيابه فعله تكبرا عليهم.

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن (٥/٤٣٣)وما بعدها

وإنما كان بغيه عليهم بكثرة ماله، كانت مفاتح قرون تحمل على ستين بغلا كـــل مفتاح منها باب كَنْز معلوم ،فلما بسط الله له الرزق تكبر وبغى على قومه .

وكُفْر اليهود والنصارى بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم [1] هو من هذا الباب ، فهم يعلمون صِدقه وصدق رسالته، ويعلمون أنه الحق من ربهم، لكنهم قوم بُهْت :﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ١٤٦)

وكثير من كفار قريش كان إلحادهم من هذا النوع ، أخذهم العزة والأنفة بالإثم، فتكبروا على الإيمان، فهم يعلمون يقينا صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن حملهم الكبر والعناد على عدم الإيمان .

قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه :" إن أول يوم عرفت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أمشي مع أبي جهل بمكة ، فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له : يا أبا الحكم ، هلم إلى الله وإلى رسوله وإلى كتابــه أدعـــوك إلى الله ، فقال : يا محمد ، ما أنت بمنته عن سب آلهتنا ، هل تريد إلا أن نـــشهد أن قـــد بلغت ، فنحن نشهد أن قد بلغت ، قال : فانصرف عنه رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم فأقبل عليّ ، فقال : والله إني لأعلم ، أن ما يقول حق ولكـــن بـــني قُصي ، قالوا : فينا الحجابة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا القِرَى ، فقلنا : نعـــم ، ثم قالوا فينا الندوة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا فينا السقاية ، فقلنا نعم ، ثم أطعمـــوا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الرُّكَب ، قالوا : منا نبي والله لا أفعل " [2]

---

(١) التزمت في هذا البحث بكتابة الصلاة على النبي هكذا (صلى الله عليه وسلم) لقراءتهـــا، دون كتابة الرسم المعتاد والذي يكون هكذا (ﷺ) والذي غالبا لا يُقرأ ، كما أن الكتابة هـــي الأصـــل والأفضل والأكثر موافقة لفعل السلف وتأدبهم في ذِكر النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أخرجه : ابن أبي شيبة في مصنفه رقم (٣٦٩٧٩)

فكفار قريش علموا صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة رسـالته، لكنـهم عاندوا و لم يؤمنوا كِبرا وحسدا من عند أنفسهم .

وفي زماننا وقع في هذا النوع من الإلحاد بعض من استمات يوما في الدفاع عـن الدين ، فألّف الكتب وأقام الحجج الواضحات، وأظهر الآيـات البينـات، ورد بعض ضلالات من يُعرفون بالعلم وينتسبون إلى قلعة من قلاعه الشمّاء، حتى كاد بعضهم يُسميه حجة الزمان ، ولكن وقعت الواقعة وأوتي من باب الكبر فألحـد واتبع هواه . نسأل الله السلامة وحسن الختام .

وإمام هؤلاء جميعا إبليس لعنه الله وقد وصفه الله تعالى بفعله هـذا أنـه : مـن الصاغرين ،و مذءوما، و مدحورا ، ورجيم ، و عليه اللعنة إلى يوم الدين،و عـدو مبين.

فمن فَعَل فِعله وُصِف بوصفه ونال جزاءه ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِـدُهُمْ أَجْمَعِـينَ ﴾ (الحجر:٤٣). وإبليس لم ولا ينكر وجود الرب وهذا فارق كبير ، وهؤلاء (أهـل الإلحاد المعاصر) ينكرون أو لا يؤمنون بخالق السماوات والأرض سبحانه وتعـالى الذي قال :﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْـتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ (الكهف:٥١) ، فهذه بعض نماذج إلحاد التكبر لمـن أقـرَّ بوجود الله ابتداءً أو انتهاءً ثم جاءه داعي التكبر فتكبر، عافانا الله أجمعين أبتعين .

المطلب الثاني: إلحاد الإشراك

الإشراك من الشِّركة، وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما والمعنى أن تجعل لله ندا وشريكا كما فعلت يهود، وكما فعلت النصارى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٠)

وهذا أعظم ذنب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل: أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال:" أن تجعل لله ندا وهو خلقك " (١)

وقد وقع في هذا النوع من الإلحاد قوم إبرهيم الخليل عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنبياء:٥٢)

فنبي الله إبرهيم عليه السلام استنكر على قومه الأصنام التي يعبدونها من دون الله، قال لهم: أي شيء هذه الصور التي أنتم عليها مقيمون، وكانت تلك التماثيل أصنامهم التي كانوا يعبدونها. كانوا يعكفون على عبادتها أي يقيمون ويديمون العبادة لها من دون الله .

و أشرك بعض يهود من هذا الباب فطلبوا من نبي الله موسى أن يجعل لهم إلها يعبدونه من دون الله: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (لأعراف ١٣٨)

بل وعبد بعضهم العجل، وقال عنهم ربنا تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (البقرة ٩٢) وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ (الأعراف:١٥٢)

(١) أخرجه: البخاري في كتاب التفسير باب: "فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون" رقم (٤٤٧٧)

قال الإمام الطبري رحمه الله :" لما أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرئيل – يعني من أرض مصر – أمر موسى بني إسرئيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط.(قال لبني إسرئيل فيما أمره الله عز وجل به: استعيروا منهم – يعني من آل فرعون – الأمتعة والحلي والثياب ، فإني منفلكم أموالهم مع هلاكهم . فلما أذن فرعون في الناس ، كان مما يحرض به على بني إسرئيل أن قال: حين ساروا لم يرضوا أن خرجوا بأنفسهم، حتى ذهبوا بأموالكم معهم!) فلما نجى الله موسى ومن معه من بني إسرئيل من البحر، وغرق آل فرعون، أتى جبريل إلى موسى يذهب به إلى الله. فأقبل على فرس، فرآه السامري فأنكره وقال: إنه فرس الحياة، فقال حين رآه: إن لهذا لشأنا. فأخذ من تربة الحافر –حافر الفرس– فانطلق موسى، واستخلف هرون على بني إسرئيل، وواعدهم ثلاثين ليلة، وأتمها الله بعشر. فقال لهم هرون: يا بني إسرئيل، إن الغنيمة لا تحل لكم، وإن حلي القبط إنما هو غنيمة، فاجمعوها جميعا، واحفروا لها حفرة فادفنوها، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها، وإلا كان شيئا لم تأكلوه. فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة ، وجاء السامري بتلك القبضة فقذفها ، فأخرج الله من الحلي عجلا جسدا له خوار . وعدّت بنو إسرئيل موعد موسى ، فعدوا الليلة يوما واليوم يوما ، فلما كان تمام العشرين، خرج لهم العجل. فلما رأوه قال لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى فنسي – يقول: ترك موسى إلهه ههنا وذهب يطلبه. فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي. فقال لهم هرون: يا بني إسرئيل إنما فُتنتم به ، أي: إنما ابتليتم به، بالعجل، وإن ربكم الرحمن. فأقام هرون ومن معه من بني إسرئيل لا يقاتلونهم، وانطلق موسى إلى إلهه يكلمه، فلما كلمه قال له: ما أعجلك عن قومك يا موسى؟ قال: هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى. قال: فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري " [1]

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن (٢/ ٦٥)

وشبيه بهذا قول النصارى :﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة:٧٣)

قال الإمام الطبري رحمه الله :"وهذا قول كان عليه جماهير النصارى قبل افتراق اليعقوبية والملكية والنسطورية. كانوا فيما بلغنا يقولون:"الإله القديم جوهر واحد يعم ثلاثة أقانيم: أبا والدا غير مولود، وابنا مولودا غير والد، وزوجا متتبعة بينهما" [(١)]

قال الله جل ثناؤه: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (المائدة:٧٦)

"يقول تعالى ذِكْره لمحمد صلى الله عليه وسلم:"قل"، يا محمد، لهؤلاء الكفرة من النصارى، الزاعمين أن المسيح ربهم، والقائلين إن الله ثالث ثلاثة، أتعبدون سوى الله الذي يملك ضركم ونفعكم، وهو الذي خلقكم ورزقكم، وهو يحييكم ويميتكم، شيئا لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ؟ إن المسيح الذي زعم من زعم من النصارى أنه إله، والذي زعم من زعم منهم أنه لله ابن، لا يملك لهم ضرا يدفعه عنهم إن أحله الله بهم، ولا نفعا يجلبه إليهم إن لم يقضه الله لهم. فكيف يكون ربا وإلها من كانت هذه صفته ؟ بل الرب المعبود: الذي بيده كل شيء، والقادر على كل شيء. فإياه فاعبدوا وأخلصوا له العبادة، دون غيره من العجزة الذين لا ينفعونكم ولا يضرون." [(٢)]

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن (١٠/ ٤٨٢)، والملكانية واليعقوبية والنسطورية فِرَق من فرق النصارى الكثيرة وثلاثتهم متفقون على أن معبودهم ثلاثة أقانيم، وهذه الأقانيم الثلاثة هي واحد وهو جوهر قديم ومعناه أب وابن وروح القدس إله واحد..!!!

(٢) ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن (١٠/ ٤٨٧)

وقد وقع في هذا النوع من الإلحاد بعض كفار قريش فكانوا يعبدون الأصنام وقالوا :﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زلفى ﴾(الزمر ٣) أي ليشفعوا لنا عند الله. وكثير من المتصوفة يدخلون في هذا المحظور من الاعتقاد في الأولياء وفي القبور وظنهم النفع والضر كحال كفار قريش ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زلفى﴾، بل واعتقادهم في بعض الكلمات، حتى لو كانت كلمات عظيمة فاضلة في نفسها ، فهذا نوع إلحاد لأنه ميل عن الطريق القويم، والعبادة توقيفية فلا يُعبد الله إلا بما أمر سبحانه ، و لا يجوز التعبد لله تعالى بعبادة إلا إذا كانت هذه العبادة قد ثبت في النصوص الشرعية (القرآن والسنة الصحيحة) أنها عبادة شرعها الله تعالى، و المتسمون بالمجاذيب من المتصوفة الذين يلوكون لفظ الجلالة بأفواههم، داخلون في هذا النوع ، فإن إطلاق لفظ الجلالة مُنفردا عن أخبار، ليس بكلام ولا ذِكر وإنما هو تلاعب بهذا اللفظ الشريف ، بإخراجه عن لفظه العربي، ولو أن رجلا عظيما يُسمى زيد ، وصار جماعة يقولون : زيد زيد زيد ، لَعُد ذلك استهزاءً وسخرية ولا سيما إذا زادوا إلى ذلك تحريف اللفظ (١)

فالأصل في العبادات الحظر والمنع ، فلا يجوز لأحد أن يتعبد لله تعالى بشيء لم يشرعه الله جل ثناؤه، وقد قال النبي صلى الله عبيه وسلم :"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَد" (٢) أي مردود . وقال صلى الله عليه وسلم : "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد" (٣).

---

(١) للمزيد حول هذا الموضوع ينظر: تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد للإمام الصنعائي

(٢) أخرجه: البخاري في كتاب الصلح رقم (٢٦٩٧) ، ومسلم رقم(١٧١٨)

(٣) أخرجه : البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود ، ومسلم في كتاب : الأقضية،باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور رقم(١٧١٨)

المطلب الثالث: إلحاد الفكر

الفكر هو: تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر إذا ردد قلبه معتبرا، ورجل فِكِّير أي كثير الفكر، وهو إعمال الخاطر، والتفكر هو التأمل، وتقول: ما دار فكري حول كذا: أي ما خطر ببالي، والفكرة: قوة مُطرقة للعلم إلى المعلوم، وقال بعضهم: الفكر مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلبًا للوصول إلى الحقيقة [(١)]

فالفكر: تردد القلب في الشيء، وهو نوع شك وقال بعضهم الفكر مقلوب الكُفر ويشتركان في عدم العلم والإبانة أو قُل: عدم الاعتقاد والإيمان، فالكفر: ستر وتغطية، والفكر: تردد وشك.

وهذا النوع من الإلحاد ثالث الأنواع وجودا ، وكثير من الناس يظنه خطأً أصل الإلحاد ، لأن هذا النوع بدأت بذرته من فلاسفة اليونان والإغريق ، فكانوا يَشُكُّون في كل شيء (شك من أجل الشك) ،فبدءوا بإنكار الغيبيات التي أطلقوا عليها (الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة المادية المحسوسة) ثم شَكُّوا في كل المسَلَّمَات، و الشك عندهم لم يكن هدفه الوصول للحقائق، بل من أجل الشك نفسه كنوع من المتعة العقلية .

وكثير من دارسي الإلحاد يرددون : الإلحاد مرحلة شك، الإلحاد هو نتاج بعض الأسئلة الشَّكِّيَّة . وهذه جمل خاطئة مُضَلِّلة وصوابها : الشك من أجل الشك نوع إلحاد، فالإلحاد لا يمكن حصره في الشك ، ولكن الشك قد يؤدي إلى الإلحاد إذا كان الشك مذهبا أي يجعله صاحبه هدفا لا وسيلة، وساعتئذ يصبح هدَّاما للعقائد والمُسَلَّمات ولا يؤدي إلى نتائج لأن صاحبه يدور في حَلْقة مفرغة كحال "بروتاجوراس" زعيم السوفوسطائيين الذي شك في كل شيء حتى قال

(١) ينظر: مقاييس اللغة ، وأساس البلاغة، ولسان العرب مادة (فكر).

:" أنا لا أعلم ما إذا كانت الآلهة موجودة أم غير موجودة لأن الموضوع غامض والعمر قصير".

بخلاف الإمام أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هجرية) الذي شك في جميع الحقائق المتعارف عليها شَكًّا منهجيا ، وبدأ يبحث بنفسه عن الحقيقة لكي يتوصل بجهده إلى اليقين حتى يصبح إيمانه بالإسلام قائما على الاقتناع الذاتي، وليس على الوراثة من الوالدين ، فجعل الشك وسيلة للوصول إلى اليقين و لم يجعله هدفا ومذهبا.

وقد استفاد من تجربة الغزالي في الشك كثير من فلاسفة الغرب على رأسهم رينيه ديكارت الفيلسوف الفرنسي المعروف والملقب بأبي الفلسفة الحديثة ، حتى إنه توصل بهذا المنهج إلى إثبات وجود الله من خلال العقل، ومع ذلك ظل كافرا..!!

فالشاهد أن إلحاد الفكر يأتي من اتخاذ الشك مذهبا في الحياة.

وقد كان هذا النوع من الإلحاد مدخلا لما جاء بعده من أنواع، حيث جعل بعض علماء المادة يُفْتَنُون بعقولهم فوقعوا في إلحاد العقل ، وافتتن بهم قوم من قليلي العقل فقلدوهم فوقعوا في إلحاد الجهل .

وعرفت العرب (١) في الجاهلية هذا النوع وسموا بالدهريين الذين كانوا يعتقدون بِقِدَم العالم، وأن العالم لا أوّل له ، وأنكروا الآخرة، ويذكرهم القرآن بقوله :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ (الجاثية٢٤)

وفي الإسلام عُرف أتباعه بالزنادقة، ولفظ الزندقة في الإسلام شمل كل فِكر فيه خروج عن توحيد الله تعالى.

---

(١) لفظة (العرب) مؤنثة أفصح من تذكيرها فنقول: عرفتْ العرب،وقالتْ العرب، وفي القرآن الكريم : " قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا " (الحجرات ١٤)

وللعلماء والأئمة مع أصحاب هذا النوع من الإلحاد منـــاظرات ومـــساجلات عديدة معروفة، كمناظرات أبي حنيفة وأبي يوسف والشافعي وابن المبارك وغيرهم

المطلب الرابع: إلحاد العقل

العقل : الحبس والمنع ، قال ابن فارس في مقاييس اللغة مادة (عقل) : "العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل. قال الخليل : العقل: نقيض الجهل. يقال عقل يعقل عقلا، إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما كان يفعله. وجمعه عقول. ورجل عاقل وقوم عقلاء. وعاقلون. ورجل عقول، إذا كان حسن الفهم وافر العقل. وما له معقول، أي عقل" انتهى .

ومن المهم في هذا الموضع أن نعلم أن العقل معناه: الحبس والمنع ، وسمي عقلا لأنه: يعقل صاحبه (يمنعه) عن النواقص.

وقد وقع فيه قوم لميلهم إلى عقولهم (والميل الإلحاد) و لم يفهموا أن أصله المنع وليس العطاء ، وأن له مدارك لا يمكنه تجاوز حدودها فهو يعمل من خلالها ويعجز عن العمل خارجها .

ولقد أحسن وأبدع الإمام الشافعي رحمه الله حين وضَّح ذلك بقوله: "إن للعقل حدًا ينتهي إليه، كما أن للبصر حدًا ينتهي إليه" ، فالعقل عِقَال وليس بحرًا سَيَّال.

وهذا لا يتناقض مع إبداعه واختراعه وفهمه وإدراكه، و نحن المسلمين أُمِرْنا بإعمال العقل في الأمر كله، بل إن أساس التكليف في الإسلام وبالإسلام العقل، ولكن الخلل يأتي بخروج العقل عن حدوده ، وميله عن جادة صوابه (والميل هو الإلحاد).

وأصل إلحاد العقل جاء نتيجة التأثر بفلسفات وسفسطات المدارس الفلسفية الشَّكِّيَّة، التي اعتمدت في شكها على القدرات العقلية لإدخال الشك في نفوس المحاورين وزعزعة ما نشئوا عليه من مُسَلَّمات وبدهيات، إلا أنه في الزمان الأول لم يتبلور إلى إلحاد عقلي، لأنه لم يكن إلا مجرد الشك والتردد فكان إلحادا فكريا.

بدأت إرهاصات الإلحاد العقلي بعد ما عُرف بالثورة الصناعية في أورُبـــَّة [1] حيث سادت المادية، وانتشر احتقار الدين النصراني ورجال الكنيسة، لتـــسلطهم وتجبرهم على الناس باسم الدين ، وباحتقار رجال الكنيسة وسقوطهم ســـقطت كل الثوابت والقيم المنتمية للدين النصراني وتم تنحية الدين جانبا ، وبدأ علماؤهم في وضع الأسس العلمية لنهضة تقوم على العقل والعلم بعيدا عن الدين ورجاله ، واستفادوا في نهضتهم بفلسفات الأقدمين من اليونانيين والإغريق ، فجمعـــوا إلى ماديتهم الشك في المُسَلَّمات والثوابت ، وساعدهم في الإمعان في هـــذا الـــشك اكتشافهم كثرة أكاذيب أحبارهم ورهبانهم وقساوستهم عليهم باسم الدين، وأن حياتهم السابقة كانت سلسلة طويلة من الأكاذيب المُقنِعة المُقَنَّعة المُقْنَعة التي لم يَـشُكُّوا فيها طرفة عين ، بل كانت أكاذيب مقدسة لا يجرئون حـــتى علـــى الـــشك أو التفكير فيها ، لذا شكُّوا في كل شيء، واغتروا بما حققوه مـــن بعـــض التقـــدم العلمي عن طريق العقل بعيدا عن رجال الكنيسة.فجعلوا العقـــل هـــو المرجـــع والحكم في الأمور كلها فما وافقه أخذوا به وما خالفه أو شك فيه العقل تركوه. فكان إلحاد العقل تطويرا لإلحاد الفكر ، فأنكروا الغيبيات (مـــا وراء الطبيعـــة) واعتمدوا على المحسوسات والماديات وهذا هو أصل الإلحاد المعاصر الذي نعـــاني

---

(1) كانت العرب قديما تطلق على البلاد الواقعة شمال البحر المتوسط بلاد أورَفِّي ، وهو الاسم الذي أطلقه أبو الريحان البيروني قبل نحو عشرة قرون كما جاء في كتاب معجم البلدان ،وفي المعجم الوسيط الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة إنها : أورُبَّة ،فالأفصح أن نقول ونكتب : أوربَّة . بتـــشديد الباء والتاء المربوطة.

منه [1] وسيأتي بيان ذلك تفصيلا – إن شاء الله – عند الحديث عن الإلحاد المعاصر وبواعثه في المبحث الثاني.

" و لا شك أن للعنصر المادي أثراً في طمأنينة المرء وشد أزره، ولكنه ليس كل شيء في خلق العزة الشخصية والجماعية، فَرُبَّ سجين مليء البطن خفيض الرأس، ورُبَّ طاوٍ حديد البصر جهير الصوت.

إن الإنسانية ليست جسداً يُعلف ويسمن، ولكنها فطرة تتشوف للانطلاق والتحرر، ولا بد أن يتقرر لها حقها في النقد والمراجعة وحساب كل ذي منصب مهما جل وإقصاء من تكره وإدناء من تحب .. واليقظة التي ينشدها الإسلام للشعوب تتضمن الأمرين جميعاً .

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ (القصص: ٥)

فكيف يتهم الدين بأنه مخدر للشعوب ؟ " [2]

---

(١) هذا النوع من تأليه العقل والتعمق في المادية بعيدا عن الروحانيات الإيمانية هو السبب الرئيس في انتحار كثير من أبنائه ، وفي كتابه "الإسلام بين الشرق والغرب" ذكر رئيس البوسنة والهرسك علي عزت بيجوفيتش أن ثلاثة عشر روائيًا وكاتبًا يابانيًا أقدموا على الانتحار وقد تزامنت هذه المأساة المتواصلة للثقافة اليابانية خلال سبعين عامًا مع اختراق الحضارة الغربية والأفكار المادية للثقافة اليابانية التقليدية ، كما أدت المادية الغربية إلى ظهور جيل بائس من الشباب يملك كل شيء ولكن يعوزه كل شيء. أولئك هم «الوجوديون» أو ما يسمون «بالجيل المهزوم» الذين يبشرون بفلسفة «العبث». وهو جيل من القُصَّر المعرضين للانحراف، و«الهيبز» الذين يتجاهلون الواقع ويسخرون من النظام والقواعد، وتنتشر أساليب سلوكهم وأفكارهم كما ينتشر الطاعون في المدن الكبرى في أنحاء العالم. وذكر أمورا أخرى كثيرة مع الإحصائيات الواقعية لها ، وللمزيد يرجع لكتاب "الإسلام بين الشرق والغرب" لرئيس البوسنة والهرسك علي عزت بيجوفيتش .

(٢) ينظر: قذائف الحق صـ ٢٠٠

وقفـــة لابد منها ، للـــه ثم للتـــاريخ .

في الحديث عن العلم وإلحاد العلماء لا يمكن تجاهل ما ذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه "من تاريخ الإلحاد في الإسلام" حيث ذكر مـــن الملحــــدين في الإســـلام أبو بكر الرازي العالم والطبيب المعروف .

والدكتور بدوي نقل هذا الكلام عن كتابات بعض المستـــشرقين، و لم يُكلـــف نفسه عناء البحث في كتب أهل الإسلام عن هذا الإمام العَلَم، فنقل مقـــالاتهم و أخذ يكررها وبنى عليها نتائج كبيرة دون تحقيق في أصل هذه المقالات.

وأبو بكر الرازي هو : أبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي عـــالم وطبيـــب مسلم ولد في الري سنة ٢٥٠ هـــ ، وصاحب كتاب " الحاوي في الطب" وهو أعظم وأكبر كتب الطب، بل هو أول موسوعة طبية في التاريخ ، اعتمدت عليه أوربة اعتمادا كليا عدة قرون — مع كتاب القانون في الطب لابن سينا – وكان كتاب الحاوي للرازي المرجع الطبي الرئيس لهم لأنه شمل كل المعارف الطبية منذ أيام الإغريق حتى زمانه، وكتبه في ثلاثين مجلدا ، وقد درس الرازي إلى جانـــب الطـــب، الرياضـــيات، والفلـــسفة، والفلك،والفيزيـــاء، والكيميـــاء،والمنطق، والأدب،وتوفي سنة ٣١١هــــ.

هذه العقلية الفذة استكثرها واستعظمها المستشرقون على المـــسلمين ، فراحـــوا يحرفون كلامه ، وينسبون له ما لا علم لأحد به من الكتب والأقوال بما أشـــكل على الدارسين العرب والمسلمين، وساعدهم على ذلك نُدرة المصادر، وذهـــاب معظم كتب الإمام الرازي، فأصبح كلامهم عنه ويكأنه المرجع والمنتهى .

ولا أعلم — فيما وقفت عليه بعد بحثي في هذا الأمر– مَنْ نسب إليه إلحادا أو شبهة إلحاد من علماء الإسلام أهل الثقة والديانة، وعندنا في الفقه قاعدة عظيمة في هذا الباب وهي قاعدة: اليقين لا يزول بالشك[1]

([1]) ينظر: الأشباه والنظائر لابن نجيم (٥٧)، المجموع المذهب (٣٠٣/١)، الأشباه والنظـــائر لابـــن

وهذه القاعدة أصل شرعي عظيم، وتنبني عليها كثير من الأحكام الفقهية، ولها مدخل في معظم أبواب الفقه.

وقد ألمح أحمد مصطفي المعروف بطاش زاده إلى شيء من فساد دينه في سطر واحد من كتابه " مِفْتاح السعادة " فقال : "وتوغل في الإلهي ، ولم يفهم غرضه الأقصى، فتقلد آراءً سخيفة ، وانتحل مذاهب ضعيفة " (١)

وطاش زاده ولد سنة ٩٠١ من الهجرية، والرازي توفي سنة ٣١١هـ ، وبين هذين التاريخين لا أعلم –فيما وقفت عليه – من قال مثل هذا الكلام أو نحوه، فمن أين جاء به طاش زاده سوى كتب المستشرقين التي بدأت تعرف في هذا الزمان .. !!

ويجب أن نفرق هنا بين أبي بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣١١هـ ، و أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ المعروف بالفخر الرازي صاحب التفسير الكبير ، فكلاهما اشتغل بالفلسفة وعِلْم الكلام وله فيها مؤلفات ، والفخر الرازي له فيها أخطاء جِسام أدت به إلى الزندقة ، إلا أنه تاب ورجع إلى الصواب في آخر حياته ، وأعلن ذلك في آخر مؤلفاته وهو كتاب : أقسام اللذات .

قال عنه الإمام ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨ هجرية) (٢) : " أبو عبد الله محمد ابن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنفه في أقسام اللذات:" لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن: اقرأ في الإثبات ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾

السبكي (١٣/١)، الأشباه والنظائر للسيوطي (٥٩).

(١) ينظر: مفتاح السعادة (٣٠٥/١) دار الكتب العلمية .

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (٧٢/٤-٧٣)

و ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ واقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ و ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

وكان يتمثل كثيرا:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذًى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

قال هذا الإمام ابن تيمية بعدما فنّد آراؤه الكلامية الظلامية ، لذا يجب الحذر عند نسبة الكلام إلى أبي بكر الرازي ، والتفريق بينه وبين أبي عبد الله الرازي.

أبو بكر الرازي ترجم له الإمام الذهبي رحمه الله ، إمام زمانه في الجرح والتعديل والمتوفى سنة ٧٤٨ هجرية ،أي قبل ميلاد طاش زاده ، في كتابه سير أعلام النبلاء في المجلد الرابع عشر صفحة ٣٥٤، ولم يذكر جرحا في الرجل ولا شبيه بالجرح.

و ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هجرية، ترجم له في وَفَيَات الأعيان في المجلد الخامس صفحة ١٥٧.

ومن قبلهم جميعا ترجم له ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ من الهجرة في كتابه الفهرست ، وابن النديم عاصر الرازي أو عاصر كبار تلاميذه

قال ابن النديم :" الرازي أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، من أهل الري، أوحد دهره وفريد عصره ، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء وسيما الطب، وكان ينتقل في البلدان وبينه وبين منصور بن إسمعيل صداقة، وله ألف كتاب المنصوري، قال لي محمد بن الحسن الوراق: قال لي رجل من أهل الري، شيخ كبير سألته عن الرازي فقال : كان شيخا كبير الرأس مسفطا، وكان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذ، ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ أخر، وكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من تَلَقاه، فإن كان عندهم علم وإلا تعداهم إلى غيرهم، فإن أصابوا

وإلا تكلم الرازي في ذلك، وكان كريما متفضلا، بارا بالناس وحسن الرأفة بالفقراء والأَعِلَّاء ، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم، قال: ولم يكن يفارق المدارج والنَّسْخ ،ما دخلت عليه قط إلا رأيته ينسخ، إما يسود أو يبيض، وكان في بصره رطوبة لكثرة أكله للباقلي، وعمي في آخر عمره ، وكان يقول :إنه قرأ الفلسفة على البلخي"

وذكر في كتبه : "كتاب أن للإنسان خالقا حكيما مقالة " فهل يؤلف كتابا بهذا العنوان من في قلبه مثقال ذرة من شبهه في وجود خالق حكيم !!

بل إن أحدا ممن جاء بعد طاش زاده لم يقل مقالته أو شبيها بها، فقد ترجم ابن العماد المتوفى سنة ١٠٨٩ هجرية لأبي بكر الرازي في كتابه "شذرات الذهب" في الجزء الرابع صفحة ٥٨ ، وسار على نهج أسلافه ، كما سار أيضا على نهجهم صاحب الأعلام الزِرِكْلي في المجلد السادس صفحة ١٣٠ .

فيا ترى من صاحب هذه الفِرية العرجاء الشوهاء على هذا الإمام الطبيب سوي غِلْمان الاستشراق وصبيانه، الذين ملأ الحقد قلوبهم وأعمى أبصارهم .

وكيف لعاقل أو متعقل أن يأخذ علمه وتاريخه عن كذاب أشر ، وشيطان من أشَرّ شياطين البشر ، ويترك المناهل العذبة الرَّوِيَّة .

وإن تعجب فالعجب العجيب العُجاب أن يعترف الدكتور بدوي اعترافا فاصلا أتى على كلامه من أعماق الأعماق، وعالج الموضوع كأفضل ترياق، فقال في كتابه تحت عنوان (نظرية النبوة) :"من الواضح أننا لا نستطيع أن نعطي صورة صادقة لمذهب ابن زكريا الرازي لأن النصوص الأصلية تعوزنا ، وكل ما لدينا في الباب إنما يرجع إلى ما يورده الخصوم من عرض لمذهبه وأقواله إما بنصها أو مبتورة من سياقها أو اختصارا وبالمعنى فحسب ، فضلا عن ندرة هذه الآثار مما لا يسمح بتكوين رأي صحيح شامل، بيد أننا سنحاول جهدنا أن نتبين ذلك المذهب من تلك الشذرات والروايات النادرة قدر المستطاع " انتهى كلام فضيلة

الدكتور...!!!! ، فهل الحكم على دين الناس يؤخذ من كلام الخصوم ؟ هل نحكم على دين البشر من خلال نصوص مبتورة من سياقها أو اختصارا، وبالمعنى فحسب فضلا عن ندرة هذه الآثار مما لا يسمح بتكوين رأي صحيح شامل ؟ وإذا كنت لا تستطيع أن تعطي صورة صادقة فما يحوجك للدخول في هذا المعترك ؟ كيف لدارس فضلا عن باحث فضلا عن دكتور أن ينقل كلاما بمثل هذه الخطورة دون تثبت أو تحقق ؟

فهذه وقفة كان لابد منها قبل أن نرمي الناس في عقائدهم ، ولنعلم خطورة كتابات المستشرقين وأنهم لا يضعون لنا السم في العسل ، بل كلها سم زُعَّاف يزينوه لنا ، وأصل كتاباتهم كتبوها لهم ولأبنائهم وتسربت إلينا عَرَضًا ، فلنتعامل معها كتعاملنا مع الألغام التي تحتاج لخبير يوقف مفعولها حتى يأمن الناس شرها.

المطلب الخامس:إلحاد الجهل والرياء

هذا النوع أَطْلقتُ عليه إلحاد جهل لأن منبعه التقليد، ورياء لأن صاحبه يبحث عن السُّمْعة والشهرة.

ويدخل تحت هذا النوع الكثرة الكاثرة من الملحدين في هذا الزمان، فهم لا يعلمون قبيلا من دبير ، ولا نقيرا من قطمير ، ولا يفقهون شيئا عن الإلحاد ، وليسوا من المشتغلين بالعلم أو الفكر حتى تأتيهم الوساوس من بعد إعمال النظر التأمل والتفكر ، إنما لسان حالهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف ٢٢)

كحال قوم إبرهيم الخليل عليه السلام :﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنبياء:٥٢- ٥٤) فقوم إبرهيم عليه السلام وقعوا في إلحاد الإشراك من باب سنة تقليد الآباء ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ وهذا يفسر لنا لماذا حطَّم الخليل أصنامهم وقوله لهم ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ حتى يعيدهم إلى رشدهم، ويفيقهم من غيهم وضلالهم القائم على الإتباع الأعمى، وهذا ما حدث ، قال تعالى:

﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ (الأنبياء ٦٣-٦٥)

وكذلك فعل بعض كفار قريش حيث قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف ٢٢)

فسنة الإتباع في الضلال قائمة كسنة الإتباع في الحق، وعلاج <u>هذا النوع يكمن في معرفة أسباب الجهل وعلاجه .</u>

المبحث الثاني: الإلحـــاد المعـــاصر وبواعثـــه

المطلب الأول :العلمانية والإلحـــاد

بعد الثورة الصناعية في أوربة والعداء المستحكم لكل ما هو ديني، نتيجة تـــسلط رجال الكنيسة على الناس فضاقوا بهم حتى جعلوا شعارهم (اشنقوا آخر ملـــك بأمعاء آخر راهب) انطلقت موجات إلحادية غزت البلاد الأوربية التي كانـــت نصرانية، ثم حرَّف الرهبان ديانتهم وملئوها بالخرافات والترهات .

وتعود الإرهاصات الأولى للثورة الصناعية إلى تأثر الأوربـــيين بالمـــسلمين، إثـــر اختلاطهم بهم عن طريق بلاد الأندلس المسلمة ومناطق الثغور(وهـــي المنـــاطق الإسلامية المتاخمة لبلاد الكفر) وانبهارهم الشديد بحضارة المسلمين، واطلاعهـــم على بعض علومهم ، ومعرفة شيئا عن العلوم التي حازوها وكان لهـــم قـــصب السبق فيها ، في الوقت الذي كانت أوربّة تعيش فيما سموه عـــصور الظـــلام أو القرون الوسطى المظلمة، وذلك لسيطرة الجهل التام على كل حياتهم، و اتباعهم لجهالات رهبانهم في كل شئون حياتهم ، مما أحدث بعض الاضطرابات في بلدان مختلفة من أوربة، استثمرها الرهبان والملوك في تنفيذ مخططاتهم ، فقـــادوا هـــؤلاء الرَّعَاع الدهماء من شعوب أوربة في حروب على المـــسلمين و بـــلاد الإســـلام عُرفت بالحروب المقدسة أو الحروب الصليبية.

استمرت الحروب الصليبية مدة قرنين من الزمان (٤٨٩هـــ - ٦٩٠هـــ) زادت فيهما معرفة الصليبيين بالإسلام و علوم المسلمين، وبدءوا في نقل بعـــض هـــذه العلوم إلى بلادهم.

في هذا الوقت كان رجال الكنيسة يشنون حربا ضروسا على العلوم وأربابهـــا ، وتسلطوا على العلماء وطلاب العلم، فذاق علماء الغرب في ذلك الوقت ألوانـــا من العذاب على أيدي رجال الكنيسة إثر ظهور بعض الاكتشافات العلمية هناك،

ووقف رجال الكنيسة ضد تلك الاكتشافات وأصحابها ، فكان الصراع الدموي مع الكنيسة، وسُمي هذا العصر بعصر التنوير أو بداية عصر النهضة الأوربية .

كانت الكنيسة قد أقرت النظام الإقطاعي السائد وقتئذ ، بل أصبحت مؤسسة من مؤسساته الثابتة، وأقرت الاضطهاد الفظيع الذي كان يتعرض له أبناء المجتمع، ووقفت تتهدد الثائرين على الظلم، المتمردين على الطواغيت بأنهم مارقون من الدين، وأنهم ملعونون عند الله ، وأخذت تضيق عليهم الخناق .

وفي نفس الوقت نشرت بعض التعاليم المحرفة ونسبتها للمسيح ، محاولة بذلك تخدير النفوس التي تأبى هذا الظلم ، قائلة : إن الرضا بالظلم في الحياة الدنيا هو مِفتاح الرضوان في الآخرة، وقالت لهم :" إن السيد المسيح يقول: " من خدم سيدين في الدنيا خير ممن خدم سيدًا واحدًا ، و إن من احتمل عذاب الدنيا ؛ فسيعوضه الله بالجنة في الآخرة."

بل سلكت الكنيسة مسلكا آخر غير الترهيب باللعن والترغيب بالآخرة، سلكت مسلك التبرير المسيحي لنظام الاسترقاق الإقطاعي على يد القديس الإيطالي توما الإكويني (٦٢٢-٦٧٣هـ) ، الذي فسره بأنه (نتيجة لخطيئة آدم) وكأن رجال الكنيسة والبارونات ليسوا من بني آدم.!!

ولقد حاول هذا القديس استخدام ذكاءه في التقريب بين رجال الكنيسة ورعاياهم ، ليزداد تمكنا في التَّغَوُّل داخل عقولهم ويمنعهم من الانبهار بالإسلام وثقافته وحضارته ، ولكن كَثْرت العوائق و التباين الشاسع بين الرهبان ورعاياهم، جعلهم كقطيع ينعق فيه ناعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً .

لقد نشر الرهبان والقساوسة نصوصا نسبوها للإنجيل تدعو لتحمل الذل والمهانة و الإهانة من السادة والملوك لعبيدهم :" من يلطمك على خدك الأيمن فأدر له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين " (إنجيل متّى ٥ : ٤٠-٤٢)

وهذا الطغيان تعود بداياته الأولى عندما ظهر إلى الوجود ما يسمى المسيحية الرسمية في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ، ومنذ ذلك التاريخ والكنيسة تمارس الطغيان الديني والإرهاب في أبشع صورة ، ففرضت بطغيانها عقائد التثليث قهرا ، وحرَّمت ولعنت مخالفيها ، بل سفكت دماء من ظفرت به من الموحدين وأذاقتهم صنوف التعذيب وألوان النكال، ونصبت نفسها عن طريق المجامع المقدسة إلها يحل ويحرم ،وليس لأحد حق الاعتراض ، أو على الأقل حق إبداء الرأي ، كائنا من كان، وإلا فالحِرْمان مصيره واللعنة عقوبته.

لقد كان الختان واجبا فأصبح حراما ، وكانت الميتة محرمة فأصبحت مباحة ، وكانت التماثيل شِرْكاً ووثنية فأصبحت من التقوى ، وكان زواج رجال الدين حلالا فأصبح محظورا ، وكان أخذ الأموال من الأتباع منكرا فأصبحت الضرائب الكنسية فرضا لازما، وأمور كثيرة نقلتها المجامع من الحل إلى الحرمة أو العكس دون أن يكون لديها من الله سلطانا أو دليلا أو برهانا، أو ترى في ذلك حرجا ، وأضافت الكنيسة إلى لغز "الثالوث" عقائد وآراء أخرى تحكم البديهة والفطرة السليمة باستحالتها ، ولكن لا مناص من الإيمان بها والإقرار بشرعيتها ، على الصورة التي توافق هوى الكنيسة ، كقضية الاستحالة في العشاء الرباني ، وعقيدة الخطيئة الموروثة، وعقيدة الصلب والعذراء والطقوس السبعة ، كل هذه فرضتها على الأتباع بحجة أنها أسرار عليا لا يجوز الخوض فيها، أو الشك في صحتها .!!

وكان العامل المساعد على إنجاح محاولاتها الذي يتمثل فيه صورة الطغيان الديني احتكارها للمصادر الدينية ، فجعل منها ذلك حاجبا ، لا يستطيع أحد دخول الملكوت إلا بواسطته،ولا يمكنه الاتصال بالله إلا من طريقه وهي حق لا مرية فيه ما دامت الكنيسة هي التي أقرته إذ هي معصومة من الخطأ مترهه عن الزلل .!!

وعززت الكنيسة سلطتها الدينية الطاغية بادعاء حقوق لا يملكها إلا الله تعالى ، مثل حق الغفران وحق الحرمان وحق التّحلة ، و لم تتردد في استعمال هذه الحقوق واستغلالها ، فحق الغفران أدى إلى الفضيحة الكبرى في تاريخ الكنيسة المعروفة بصكوك الغفران !! ، وحق الحرمان سواء الفردي أم الجماعي عقوبة معنوية بالغة كانت شبحا مخيفا للأفراد والشعوب في آن واحد ، يعاقب به كل من خالف أوامر الكنيسة ، بل هدد به رجال الكنيسة كثير من الملوك والأباطرة. !!

و حق التّحلة أو التحليل هو حق خاص يبيح للكنيسة أن تخرج عن تعاليم الدين وتتخلى عن الالتزام بها متى اقتضت المصلحة – مصلحتها هي – ذلك .

وهي بذلك قد وضعت لنفسها حقوقا وصلاحيات ومبررات لكل أفعالها ، سواء وافقت تعاليم النصرانية أم خالفتها .

وحشدت الكنيسة الجيوش الجرارة لمحاربة من سولت له نفسه مخالفة آرائها وعقيدها، سواء في ذلك المسلمين أم الطوائف النصرانية التي اختلفت مع الكنيسة في قضية من قضايا العقيدة أو الشريعة .

والتاريخ ممتلئ بمثل هذه الحروب التي تحكي لنا ما أوقعه القساوسة من تعذيب وقتل ونكال ، ما يتضاءل إزاء بشاعته قصص الوثنيين في قتل الموحدين [١]

و لم يقف الأمر عند هذا الحد لا سيما بعد أن اتضح للكنيسة الأثر الإسلامي الظاهر في الآراء المخالفة لها ، فأنشأت شبحا مخيفا مرعبا أطلق عليه اسم : "محاكم التفتيش " التي تقشعر لهول ما ارتكبته الأبدان. وذاق أهل الإسلام في

---

(١) للمزيد حول هذا الأمر ينظر : المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية للدكتور عدنان النحوي ، تهافت العالمانية للدكتور صلاح الصاوي ، تحكيم الشريعة ودعاوى العلمانية للدكتور صلاح الصاوي ، الدولة العثمانية والغزو الفكري للدكتور خلف الوذيناني ، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، مجموعة بحوث لمؤتمر الفقه الإسلامي بجامعة الإمام بالرياض سنة ١٣٩٦ هجرية ونشرته إدارة الثقافة بالجامعة

هذه البلاد أنواع التعذيب والاضطهاد وتجرعوا المـــرارات ، ووصـــل الأمـــر إلى إبادات جماعية في بلاد الأندلس المسلمة وقتئذ .

لقد مورست في هذه المحاكم أبشع أنواع التعذيب والإيـــلام ، وأزهقـــت آلاف الأرواح تحت وطأة التعذيب والترويع الذي كان من صوره : إملاء البطن بالمـــاء حتى الاختناق، وسحق العظام بآلات ضاغطة وربـــط يـــدي المتـــهم ..!! وراء ظهره، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ورفعه وخفضه معلقا سواء بمفرده أم مـــع أثقال تربط به، والأسياخ المحمية على النار، وتمزيق الأرجل، وفسخ الفك. وكثيرا ما كانت تصدر أحكام إعدام حرقا، وكانت احتفالات الحرق جماعية، تبلـــغ في بعض الأحيان عشرات الأفراد، وكان الملك فرناندو الخامس من عـــشاق هـــذه الحفلات. وكان لهم توابيت مغلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جـــسم المعذب تدريجيا، وأيضا أحواض يقيّد فيها الرجل ثم يسقط عليه الماء قطرة قطـــرة حتى يملأ الحوض ويموت. وكانوا يقومون بدفنهم أحياءً ، ويجلدوهم بسياط مـــن حديد شائك، وكانوا يقطعون اللسان بآلات خاصة لذلك [1]

وبفضل هذا الإرهاب البالغ والطغيان العاتي ، عاش الناس تلك الأحقاب ترتعـــد قلوبهم وترتجف أوصالهم عند ذكر الكنيسة ، ووقف كبـــار الفلاســـفة والنقـــاد مبهوتين مُطْرقين ، لا يجرؤ أحدهم على التصريح بأنه لا يؤمن بالمسيحية مهمـــا كانت آراؤه مخالفة لتعاليمها .

([1]) للمزيد ينظر : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين للدكتور محمد عبد الله عنان ، و جهـــود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده للدكتور نبيل عبد الحي رضوان،و مقال للدكتور الطاهر مكي بعنوان: مسلم إسباني أمام محاكم التفتيش ، مجلة الدوحـــة ، قطـــر ، ١٩٨١م، ومقـــال للدكتور وائل علي حسين بعنوان: محاكم التفتيش والمسئولية الغربية ، مجلة الراية ، العدد ١٨٦ ، بيروت ، ١٩٨٢م.ويكفيك أن تكتب (محاكم التفتيش) على أي موقع من مواقع البحـــث في شبكة المعلومات لترى جزء من حقيقة فاجعة ، وربما يقربها ما يحدث لمسلمي بورما في عـــصرنا من إبادة وحرق تقشعر من هولها جلود الموحدين ، والله وحده المستعان.

و لم يُداخل أحد من العلماء آنذاك أن يعترض على عقائد الكنيسة الفجة ، أو على الأقل يجاهر بمخالفتها، فقد كانت الكنيسة ترى أن خضوع الملوك لها ليس تطوعا منهم بل واجبا يقتضيه مركزها الديني وسلطانها الروحي ، فقد جاء في البيان الذي أعلنه البابا نيقولا الأول قوله : " إن ابن الله أنشأ الكنيسة : بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها ، وأن أساقفة روما ورثوا بطرس في تسلسل مستمر متصل ولذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين ، حكاما كانوا أو محكومين."

أما الطاغية جريجوري السابع ، فقد أعلن أن الكنيسة ، بوصفها نظاما إلهيا ، خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية ، ومن حق البابا وواجبه ، بصفته خليفة الله في أرضه ، أن يخلع الملوك غير الصالحين وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم ، حسب مقتضيات الأحوال .

فكان الباباوات هم الذين يتولون تتويج الملوك والأباطرة ، كما كان في إمكانهم خلع الملوك وعزلهم بإرادتهم المحضة ، و لم يكن باستطاعة أحد الانفلات من ذلك، ومن رفض الرضوخ فإن حكمه غير شرعي ومن حق البابوية أن تعلن الحرب الصليبية عليه و خلعه .

ولعل خير مثال لذلك حادثة الإمبراطور الألماني هنري الرابع المعروفة مع البابا جريجوري السابع نفسه ، فقد نشب خلافا بينهما حول مسألة التعيينات ، فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا ورد البابا بخلع الإمبراطور وحرمه وأحل أتباعه والأمراء من ولائهم له وألّبهم عليه، فعقد الأمراء مَجْمَعا مقدسا قرروا فيه أنه إذا لم يحصل الإمبراطور على المغفرة لدى وصول البابا إلى ألمانيا فإنه سيفقد عرشه إلى الأبد ، فوجد الإمبراطور نفسه كالأجرب بين رعيته ، و لم يكن في وسعه أن ينتظر وصول البابا فضرب بكبريائه عرض الحائط ، واستجمع شجاعته وسافر مجتازا جبال الألب متحملا برد الشتاء الذي كان على أشده ، يبتغي

المثول بين يدي البابا ، وظل واقفا في الثلج في فناء القلعة ثلاثة أيام، في لباس الرهبان متدثرا بالخيش حافي القدمين عاري الرأس، يحمل عكازه مُظْهرا كل علامات الندم وأمارات التوبة، حتى تمكن من الظفر بالمغفرة والحصول على رضا البابا العظيم .!!

هذه صورة واحدة من صور شتى مشابهه تبين تسلط بعض الرجال باسم الدين بعد أن حرّفوه ، فحللوا الحرام وحرّموا الحلال ، وأخذوا أموال الناس بالباطل ، وتحكموا في الملوك والأمراء عزلا وتعيينا .

ومع هذا التسلط السياسي أصبحت الكنيسة أكبر مُلّاك الأراضي وأكبر السادة الإقطاعيين في أورُبــّة ، فكانت تملك ثلث أراضي إنجلترا وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقي و فرضت على كل أتباعها ضريبة "العشور" وبفضل هذه الضريبة كانت تضمن الحصول على عُشْرِ ما تغله الأراضي الزراعية والإقطاعيات، وعُشْر ما يحصل عليه المهنيون وأرباب الحرف غير الفلاحين .

وأنا هنا لا أسرد وقائع تاريخية ، لكن هذا فقط بيان موجز لحال الرهبان ورجال الكنيسة في تسلطهم وتجبرهم على الناس باسم الدين ، فكانت كلمة واحدة منهم (هذا العمل يرضي الرب) كفيلة بعمل ما لا يمكن عمله الشهور والأعوام من خطب الملوك الرنانة ، ومن ثم تحكموا في عقول الناس وتوجهاتهم ، وعملوا على نشر الخرافات التي تساعدهم على ذلك ، إذ جعلتها الكنيسة عقائد إلهية تدخل في صُلب الدين وصميمه ، وعدت الكفر بها كفرا بالوحي والدين . وضاق صدرها ذرعا بمن يخالف هذه الترهات ، التي هي تعليمات إلهية لا يجب مخالفتها ولا مناقشتها ولا الشك بها، فكان ذلك هو أساس الصراع والمُعاداة بين رجال الكنيسة والعلم والعلماء .

هذا العلم الذي كان مصدره الرئيس والأساسي ، مراكز الحضارة الإسلامية في الأندلس وصقلية وجنوب إيطالية ، التي كانت تشع نور العلم والمعرفة على القارة

المستغرقة في دياجير الخرافة والجهل ، وثارت ثائرة رجال الكنيسة على الـذين يتلقون علوم الكفار (المسلمين) ، ويُعرِضُون عن التعاليم المقدسة، فأعلنت حالة الطوارئ ضدهم ، وشكلت محاكم التفتيش في كل مكان تتصيدهم وتـذيقهم صنوف النكال ، وبذلك قامت المعركة على قدم وساق وأخذت تـزداد سُعَارا بمرور الأيام .

بدأ هذا الصراع منذ أن أعلن كوبرنيكوس نظريته سنة ١٥٤٣ ميلادية وتتلخص حول مركزية الشمس وكون الأرض جرما يدور في فلكها،وذلـك في كتابـه "حركات الأجرام السماوية " ، وعارض في ذلك نظرية بطليموس التي تعتنقهـا الكنيسة والتي تجعل الأرض مركز الكون، وتقول: إن الأجرام الـسماوية كافـة تدور حولها ، حيث وقع كوبرنيكوس في قبضة محكمـة التفتـيش ، وحرّمـت الكنيسة كتابه، وقالت إن ما فيه هو وساوس شيطانية مغايرة لروح الإنجيل [1]

ثم جاء جاليلو(توفي سنة ١٦٤٢ م) الذي صنع التلسكوب مستفيدا من نظرية العالم المسلم الحسن بن الهيثم في البصريات ، فقبض عليه فخشي علـى نفـسه فأعلن ارتداده عن رأيه وهو راكع على قدميه أمام رئيس المحكمة قـائلا : " أنـا جاليلو وقد بلغت السبعين من عمري سجين راكع أمام فخامتـك ، والكتـاب المقدس أمامي ألمسه بيدي ، أرفض وألعن وأحتقر القول الإلحادي الخاطئ بدوران الأرض " ، وتعهد مع هذا بتبليغ المحكمة عن كل ملحد يوسوس لـه الـشيطان تأييد هذا الزعم المضلل .!!

ثم بدأ العلماء يضيقون ذرعا بالكنيسة وتسلطها، فبدءوا في نشر أفكارهم سِـرًا لتكوين جبهة قوية من طلاب العلم تستطيع التصدي لهذا التجـبر الكنـسي ، و

(1) للمزيد حول هذه الصراعات ينظر: العلم والفلسفة الأوروبية الحديثة من كوبرنيـق إلى هيـوم للدكتور أيوب أبو دية ، دار الفارابي بيروت ٢٠٠٩

فضح خرافاتها ونقض التعاليم الدينية مباشرة ، بل وتطبق المنهج العقلـي علـى الكتاب المقدس نفسه ووضع الأسس التي قامت عليها المدرسة العقلية التي تـرى الكتب المقدسة تراثا بشريا وليست وحيا إلهيا، من أمثال: ديكارت وسـبينوزا و جون لوك و طالبوا بإخضاع الوحي للعقل .

وقد تعرضت كتب ديكارت وسبينوزا ولوك وأضرابهما للحرق والمصادرة، كما تعرضوا شخصيا للإيذاء والمضايقة من قِبَل رجال الكنيسة . إلا أن تفجر البركان العلمي في كل مكان بدأ في إضعاف موقف الكنيسة ، فحاولت عبثا إخفاء هـذا الضعف بمزيد التنكيل والتعذيب .

وكان العلم قد بدأ في الانتشار وبدأت النظريات العلمية في الرواج ، وبدأ نيوتن (ولد في نفس العام الذي توفي فيه جاليلو سنة ١٦٤٢ م) في إثبات نظرياتـه الفيزيائية التي تعد تتميما لما بدأه جاليليو وأقرانه ، وزاد قبول الناس علـى العلـم حتى جاءت الحلقة الفاصلة من خلال ما عُرف بأحداث الثورة الفرنـسية الـتي اندلعت عام ١٧٨٩ وامتدت حتى ١٧٩٩ميلادية، حيث تم إعلان الجمهوريـة و إلغاء الملكية في سبتمبر ١٧٩٢م ، وأعدم الملك لويس السادس عـشر في العـام التالي. وامتد تأثير الثورة الفرنسية في أوربة، التي عانت جميعها من ظلم الكنيـسة ورجالها بإعلان ما عرف بالجمهوريات والديمقراطيات الليبرالية وانتشار العلمانية.

و يرجع أصل كلمة علمانيـة إلى الكلمـة اللاتينيـة (SECULARISM) وترجمتها الصحيحة هي: اللادينية أو الدنيوية، بمعنى ما لا علاقة لـه بالـدين ، وذلك لفصل الكنيسة ورجالها عن الحياة ، ويؤكد هذه الترجمة ما ورد في دائـرة المعارف البريطانية في مادة (SECULARISM) : هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمـام بهـذه الـدنيا وحدها.

ويؤكد أن معنى ترجمة الكلمة اللاتينية هي اللادينية؛ ما أورده معجم أكسفورد شرحاً لكلمة (SECULAR):

(١) دنيوي أو مادي، ليس دينيا ولا روحيا مثل التربية اللادينية، الفن أو الموسيقى اللادينية، السلطة اللادينية، الحكومة المناقضة للكنيسة.

(٢) الرأي الذي يقول: إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساسا للأخلاق والتربية.

وهذا الاسم ليس له صلة بالعلم لأنه أصل الكلمة باللاتينية ليس له علاقة بالعلم، والذين ابتدعوها لم يريدوا بها العلم من قريب ولا من بعيد. ولو أرادوه لاستخدموا ما يشير إلى النسبة إلى العلم هي (SCIENTIFIC) لأن العلم بالإنجليزية (SCIENCE) فتكون النسبة إليه (علمي) وليس علماني.

هذا معنى الكلمة عند من اخترعها كما فسروها في معاجمهم.

وظل الاتجاه إلى اللادينية يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله، باعتبارها حركة مضادة ليس للدين المسيحي فقط بل كل الأديان .

وكان من نتائج العلمانية انتشار الإلحاد بجميع صوره وأشكاله في حياة الغربيين وذلك نتيجة لهزيمة الكنيسة ورجالها المتسلطين في مواجهة العلمانية ، مما أدى لإلغاء وإبعاد الدين عن شئون الحياة العامة، واقتصاره على الجانب الفردي الاختياري في حياة الإنسان، ولأول مرة في تاريخ البشرية تقوم دول وأنظمة عالمية تتبنى الإلحاد في أشد صوره غلوا وتطرفا ومادية.

منذ نهايات القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر ومع التطور العلمي والتكنولوجي الذي شهده الغرب، بدأت بوادر تيارات أعلنت استقلالها عن فكرة وجود الخالق الأعظم. هذا العصر كان عصر كارل ماركس ، وتشارلز داروين، وفريدريك نيتشه ، وسيغموند فرويد ، الذين بدءوا بتحليل الظواهر العلمية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية بطريقة لم يكن لفكرة الخالق الأعظم أي دور فيها.بل واعتبرت الدين شيئا مُضِرا يجب أن يهجره الناس ويبتعدون عنه،

ومن هنا قال ماركس قولته الشهيرة: (الدين أفيون الشعوب)، وهـي مقالـة صادقة كل الصدق على دين الكنيسة المحرف، ولكنها كاذبة كل الكذب حـين تطلق على الإسلام، وهو الدين المترل من عند الله تعالى والذي حفظـه مـن أي تحريف أو تبديل ، بل وأنفق علماء الشريعة الأجلاء الغالي والنفـيس في جمعـه وحفظه ، وتعلمه وتعليمه، بخلاف ما فعل رجال الكنيسة .

لقد كان للنظام الاجتماعي الظالم في أوربة ومساندة الكنيسة له أثرًا خطـيرًا في الحياة والفكر الغربي، فقد تم الربط بين الإقطاع والدين، حيـث كـان النظـام الإقطاعي في عنفوان شبابه، في الفترة نفسها التي كانت المسيحية فيهـا في أوج عظمتها، ثم كان انهيار النظام موازيا لانهيار الكنيسة، واسـتنتجت أورُبـَّـة في عصر النهضة من ذلك معادلة خاطئة، وهي أن المجتمع الإقطاعي طبقي ظالم لأنـه متدين، فزوال الظلم من المجتمع يستلزم نبذ الدين كلية، أو على الأقل عزله عـن التأثير في مجريات الأحداث ؛ وتلك كانت نظرية الكُتَّاب الطبيعيين الذين وضعوا نواة الفكر الرأسمالي الحديث.

و ساهم في هذه الحركة الموقف الهش للديانة المسيحية المحرفة في القرون الوسطى وما تلاها، نتيجة للحروب والجرائم والانتهاكات التي تمت في أوربة باسم الدين، ونتيجة تعامل الكنيسة الكاثوليكية بما اعتبرته هرطقة أو خروجـا عـن مبـادئ الكنيسة .

و لم يقف الأمر عند العلماء فحتى الأدباء أعلنوا وفاة فكرة الدين والخالق، ومـن أبرز الشعراء في هذه الفترة هو وليم بليك (١٧٥٧ – ١٨٢٧) حيـث قـال في قصائده : إن الدين أبعد الإنسان من إنسانيته بفرضه قوانين تعارض طبيعة البـشر من ناحية الحرية والسعادة، وأن الدين جعل الإنسان يفقد حريته واعتماده علـى نفسه في تغير واقعه.

وبدأت تدريجيا وخاصة على يد الفيلسوف الألماني آرثر شـوبنهاور (١٧٨٨ – ١٨٦٠) بروز فكرة أن "الدين هو من صنيعة البشر، ابتكروها لتفسير مـا هـو مجهول لديهم من ظواهر طبيعية أو نفسية أو اجتماعية ، وكان الغرض منه تنظيم حياة مجموعة من الناس حسب ما يراه مؤسس الدين مناسـبا، ولـيس حـسب الحاجات الحقيقية للناس الذين عن جهل قرروا الالتزام بمجموعة من القيم البالية، وأنه من المستحيل أن تكون كل هذه الديانات من مصدر واحد .

فالإله الذي أنزل المصائب على المصريين القدماء، وقتل كل مولـود ليخـرج اليهود من أرض مصر، ليس هو نفس الإله الذي ينصحك بأن تعطي خدك الآخر ليتعرض للصفع دون أن تعمل شيئا ".

وتزامنت هذه الأفكار مع أبحاث تشارلز داروين الذي كان مناقضا تماما لنظريـة نشوء الكون في الكتاب المقدس وظن جهلا أنه أبدع نظرية جديدة (الداروينية).

وأعلن فريدريك نيتشه من جانبه موت الخالق الأعظم وقال: إن الـدين فكـرة عبثية وجريمة ضد الحياة ، إذ إنه لم يفهم فكرة التكليف التي يقول بهـا الـدين ، وهي أن يعطيك الخالق مجموعة من الغرائز والتطلعات وفي نفس الوقت يـصدر تعاليم بحرمانك منها في الحياة ليعطيك إياها مرة أخرى بعد الموت، خصوصا وأن رجال الدين في أورُبـَّة آنذاك كانوا يميلون إلى الرهبانية والانقطاع عن الـدنيا. وهكذا أخذت أفكار الملحدين في هذه المرحلة منحى النفور من الدين لتنـاقض العقل مع تصرفات وتعاليم الكنيسة.

واعتبر كارل ماركس الدين أفيون الشعوب يجعل الشعب كسولا وغـير مـؤمن بقدراته في تغيير الواقع، وأن الدين تم استغلاله من قبل الطبقة البرجوازية لـسحق طبقة البسطاء، أما سيغموند فرويد فقد قال: إن الدين هو وهم كانت البـشرية بحاجة إليه في بداياتها، وأن فكرة وجود الإله هي محاولة من اللاوعي للوصول إلى الكمال في شخص يكون مثلا أعلى بديلا لشخـصية الأب، إذ إن الإنـسان في

طفولته حسب اعتقاد فرويد ينظر إلى والده كشخص متكامل وخارق، ولكن بعد فترة يدرك أنه لا وجود للكمال، فيحاول اللاوعي إيجاد حل لهذه الأزمة بخلق صورة وهمية لشيء اسمه الكمال.

كل هذه الأفكار وبصورة تدريجية ومع التغيرات السياسية التي شهدتها فرنسا بعد الثورة الفرنسية وبريطانيا وإيطاليا كان الاتجاه السائد في أورُبـَّة هو: فصل السياسة عن الدين ، وتنحية الدين جانبا عن شئون الحياة ، وإلغاء العديد من القيود على التعامل والتعبير التي كانت مفروضة من السلطات السابقة التي كانت تأخذ شرعيتها من رجالات الكنيسة. وعندما بدأ الاستعمار [1] الأوروبي للعالم الإسلامي حيث تحولت الجزائر إلى مستعمرة فرنسية عام ١٨٣٠، وتحولت اليمن في عام ١٨٨٢ إلى مستعمرة بريطانية ، وبين دول الغرب الثائرة تحولت كثير من الدول إلى مستعمرات : مصر، تونس، السودان، ليبيا، المغرب..وغيرها، هنا بدأ احتكاك جديد لأول مرة بين قوى متطورة من الناحية العلمية والتكنولوجية ولا تعترف بأي دور للدين في السياسة ، وبين مسلمين أدركوا أن ركب التقدم قد فاتهم ولكنهم في قرارة أنفسهم كانوا لا يزالون يؤمنون بأنهم "خير أمة أخرجت

---

(1) انتقد العلامة البشير الإبرهيمي رحمه الله استعمال هذه الكلمة في هذا السياق فقال في مقالة له نشرت في جريدة البصائر عدد(١) سنة ١٩٤٧م تحت عنوان: كلمات مظلومة :" مادة هذه الكلمة هي العمارة ، ومن مشتقاتها التعمير ، والعمران وفي القرآن :"هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"(هود ٦١)، فأصل هذه الكلمة في لغتنا طيب ، وفروعها طيبة، ومعناها القرآني أطيب وأطيب ، ولكن إخراجها من المعنى العربي الطيب إلى المعنى الغربي الخبيث ، ظلم لها ...فالذي سير هذه الكلمة بغيضة إلى النفوس ، ثقيلة على الأسماع، مستوخمة في الأذواق، هو معناها الخارجي وهو معنى مرادف للإثم والبغي والخراب والظلم والتعدي والفساد والنهب والسرقة والشره والقسوة والانتهاك والقتل والحيوانية ..!! إلى عشرات بل مئات من هذه الرذائل تفسرها آثاره ، وتنجلي عنها وقائعه وواعجبا تضيق الأوطان على رحبها بهذه المجموعة وتحملها كلمة لا تمت إلى واحد منها بنسب "

للناس" ، فظهر في الطريق خياران لا ثالث لهما إما اللحاق بالتقدم الغربي من خلال **التقليد والمحاكاة** والعلاقات الجيدة، أو القناعة بأن ما آل إليه حال المسلمين من خضوع يكمن سببه في الابتعاد عن أصول الدين الإسلامي. فاختاروا الرجوع إلى المصادر الأولى للدين لينهلوا منها تعاليمه السامية ويسيروا على درب السلف.

والذين تمسكوا بالإسلام بعضهم فهمه معنى ومضمونا وعرف مدى استيعابه للمتغيرات ، وفريق آخر حاول الجمع بين الإسلام وحضارة الغرب فأخذوا مصطلحات الغرب وألبسوها ثوب الإسلام زعموا، فأصبحنا نسمع (الديمقراطية الإسلامية، والأحزاب الدينية ، والدولة المدنية) وغيرها مما هو دخيل على المسلمين لفظا ومعنى .

هكذا تسربت أفكار الإلحاد إلى بلاد المسلمين رويدا رويدا عن طريق الاحتلال المسمى بالاستعمار ، والبعثات العلمية لبلاد الغرب الملحد، ثم الطفرة الهائلة في التِّقَانة ووسائل الاتصال ،التي زادت من اتصال الشرق بالغرب والشمال بالجنوب، ساعد على ذلك انبهار كثير من المسلمين بحضارة الغرب وتقدمهم في العلوم، فأخذوا يحاكونهم ويقلدونهم ويأخذون عنهم ، وهذه سنة الأمم الضعيفة المنهزمة في تقليد الأمم المنتصرة كما قال ابن خلدون في مقدمته !!

يقول ابن خلدون : " الفصل الثالث والعشرون في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونِحْلَته وسائر أحواله وعوائده .

والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به ، وذلك هو الاقتداء ، أو لما تراه والله أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس وإنما هو بما انتحلته من

العوائد والمذاهب، تغالط أيضا بذلك عن الغلب وهذا راجع للأول، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب، في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله، وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائما، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم ، وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر لأنهم الغالبون لهم، حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة ، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله.

وتأمل في هذا سر قولهم:" العامة على دين الملك " فإنه من بابه، إذ الملك غالب لمن تحت يده ، والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم ، والمتعلمين بمعلميهم ، والله العليم الحكيم وبه سبحانه وتعالى التوفيق. " انتهى

والعجيب أن من رام العلوم من أبناء بلادنا ذهب ينهل من مستنقعات الغرب، وهم إنما أخذوا العلوم عنا وسرقوا مخطوطاتنا وكتبنا ، عندما أدركوا أن تقدمنا عليهم في الزمن الماضي كان قائما على علوم لم يعرفوها أو يسمعوا عنها، فنزلوا بلاد الإسلام وأخذوا ما استطاعوا من الكتب شراءً أو سرقة أو حسب ما تيسر، ثم راحوا يستشرقون (يدرسون علوم الشرق) ليفهموا كيف تقدمنا عليهم ، وما كتبوه في هذا الأمر (أقصد كتابات المستشرقين) إنما كتبوه لأبناء جلدتهم لا خدمة لأمتنا أو للإنسانية كما يزعم الأغتام الأغمار.

والعجب ليس فيما فعلوا ، لأنهم فعلوا ذلك خدمة لأمتهم ، لكن العجب في بعض أبنائنا الذين يلهثون ثرى الغرب بغثّه وسمينه وضغثه وإبالته ، هذا التقليد

الأعمى المُسْتَعمِي دون وعي لحقائق الأمور هو الذي يورد المهالك، وفي الإمكان أن يكون الأمر أفضل من ذلك.

" لقد بزغ نجم العلمانية وعلا شأنه في الغرب في ظل الظروف التي أشرنا إليها ، وقد صاحب ظهورها في الغرب انحطاط وتخلف وهزائم في الشرق، مما أتاح للغرب أن يستلم زمام قيادة ركب الحضارة البشرية بما أبدعه من علم وحضارة ، وما بذله من جهد وتضحية ، فكان أمرا طبيعيا أن يسعى الغرب لسيادة نموذجه الحضاري الذي يعيشه، وأن يُسَوقه بين أمم الأرض لأنه بضاعته التي لا يملك غيرها ، ولأنه أيضا الضمانة الكبرى لبقاء الأمم الأخرى تدور في فلك التبعية له وتكدح في سبيل مدنيته وازدهار حضارته ، وكان تسويق الغرب للعلمانية ونقلها للشرق الإسلامي من خلال الوسائل والطرق الآتية :

١- من خلال الاحتلال العسكري الاستعماري :

فقد وفدت العلمانية إلى الشرق في ظلال الحرب العسكرية، وعبر فوهات مدافع البوارج البحرية، ولئن كانت العلمانية في الغرب نتائج ظروف ومعطيات محلية متدرجة عبر أزمنة متطاولة، فقد ظهرت في الشرق وافدا أجنبيا متكامل الرؤى والأفكار والبرامج ، يطبق تحت تهديد السلاح وبالقسر والإكراه، كمن يصرّ على استنبات نبتات القطب الجليدي في المناطق الاستوائية ، وفي هذا من المصادمة لسنن الله في الحياة ما يقطع بفشل التجربة قبل تطبيقها، لأن الظروف التي نشأت فيها العلمانية وتكامل مفهومها عبر السنين تختلف اختلافا جذريا عن ظروف البلدان التي جلبت إليها جاهزة متكاملة في الجوانب الدينية والأخلاقية والاجتماعية والتاريخية والحضارية ، فالشرط الحضاري الاجتماعي التاريخي الذي أدى إلى نجاح العلمانية في الغرب مفقود في الشرق بل في الشرق نقيضة تماما – و أعني بالشرق هنا الشرق الإسلامي – ولذلك فلا عجب إن كانت النتائج مختلفة تماما كما سنرى ، وحين نشأت الدول العربية الحديثة كانت عالة على

الغربيين الذين كانوا حاضرين خلال الهيمنة الغربية في المنطقة ومن خلال المستشارين الغربيين أو من درسوا في الغرب واعتنقوا العلمانية ، فكانت العلمانية في أحسن الأحوال أحد المكونات الرئيسية للإدارة في مرحلة تأسيسها، وهكذا بذرت بذور العلمانية على المستوى الرسمي قبل جلاء جيوش الاستعمار عن البلاد التي ابتليت بها .

٢- من خلال البعثات التي ذهبت من الشرق إلى الغرب لطلب العلم والتقدم

فعاد كثير منها بالعلمانية لا بالعلم ، ذهبوا لدراسة الفيزياء والأحياء والكيمياء والجيولوجيا والفلك والرياضيات فعادوا بالأدب واللغات والاقتصاد والسياسة والعلوم الاجتماعية والنفسية ، بل وبدراسة الأديان خصوصا الدين الإسلامي في الجامعات الغربية ، ولك أن تتصور حال شاب مراهق ذهب يحمل الشهادة الثانوية ويلقى به بين أساطين الفكر العلماني الغربي على اختلاف مدارسه ، بعد أن يكون قد سقط إلى شحمة أذنيه في حمأة الإباحية والتحلل الأخلاقي وما أوجد كل ذلك لديه من صدمة نفسية واضطراب فكري ، ليعود بعد عقد من السنين بأعلى الألقاب الأكاديمية ، وفي أهم المراكز العلمية بل والقيادية في وسط أمة أصبح ينظر إليها بازدراء ، وإلى تاريخها بريبة واحتقار ، وإلى قيمها ومعتقداتها وأخلاقها - في أحسن الأحوال - بشفقة ورثاء . إنه لن يكون بالضرورة إلا وكيلا تجاريا لمن علّموه وثقّفوه ومدّنوه !! ، وهو لا يملك غير ذلك ، ولئن كان هذا التوصيف للبعثات الدراسية ليس عاما ، فإنه الأغلب وبالذات في أوائل عصر البعثات ، وما " طه حسين " و" رفاعة الطهطاوي " إلا أمثلة خجلى أمام غيرهم من الأمثلة الصارخة الفاقعة اللون مثل " زكي نجيب محمود" و" محمود أمين العالم " و"فؤاد زكريا" و "عبد الرحمن بدوي" وغيرهم كثير .

ولئن كان هذا الدور للبعثات العلمية تم ابتداء من خلال الابتعاث لعواصم الغرب فإن الحواضر العربية الكبرى مثل "القاهرة - بغداد - دمشق" أصبحت بعد ذلك

من مراكز التصدير العلماني للبلاد العربية الأخرى، من خلال جامعاتها وتنظيماتها وأحزابها وبالذات لدول الجزيرة العربية ، وقلّ من يسلم من تلك اللوثات الفكرية العلمانية، حتى أصبح في داخل الأمة طابور خامس ، وجهته غير وجهتها وقبلتـه غير قبلتها ، وإنهم لأكبر مشكلة تواجه الأمة لفترة من الزمن ليست بالقليلة .

٣- من خلال البعثات التنصيرية المسماه (تبشيرية) :

فالمنظمات التبشيرية النصرانية التي جابت العالم الإسلامي شرقا وغربا من شـتى الفرق والمذاهب النصرانية، جعلت هدفها الأول زعزعة ثقة المسلمين في دينهم ، وإخراجهم منه ، وتشكيكهم فيه ، حتى وإن لم يعتنقوا النصرانية ، وليس أجدى من العلمانية وسيلة لهذا الغرض ، والأمر ليس من باب التخمين والافتراض بـل نطقت بهذا أفواههم وخطته أقلامهم ، وإن شئت فارجع إلى كتاب "الغارة على العالم الإسلامي" مثلا ليبين لك ذلك .

وهؤلاء المبشرين : إما من الغربيين مثل "زويمر" و "دنلوب"، وإما من نـصارى العرب مثل "أديب إسحق" و "شلبي شميل" و "سلامة موسى" و "جرجي زيدان" وأضرابهم . ومنهم من كان يعلن هويته التبشيرية ويمارس علمنة أبناء المـسلمين "كزويمر"ومنهم من كان يعلن علمانيته فقط ، ويبذل جهده في ذلك "كـسلامة موسى"و"شلبي شميل" .

٤- من خلال المدارس والجامعات الأجنبية :

ففي أواخر الدولة العثمانية وحين سيطر الماسونيون العلمانيون على مقاليد الأمـر سمح للبعثات التبشيرية والسفارات الغربية بإنشاء المدارس والكليات، وانتـشرت في بلاد الشام والأناضول انتشار النار في الهشيم ، وخرجت أجيال مـن أبنـاء وبنات المسلمين أصبحوا بعد ذلك قادة الفكر والثقافة ودعاة التحرير والانحلال .

ومن الأمثلة على ذلك الجامعة الأمريكية في بيروت ، والتي في أحضانها نـشأت العديد من الحركات والجمعيات العلمانية، وقد سرت العدوى بعد ذلك إلى كثير

من الجامعات والمؤسسات التعليمية الرسمية في العديد من البلاد العربية والإسلامية ، وقد قام خريجو هذه المدارس والجامعات بممارسة الدور نفسه حين عادوا لبلدانهم أو ابتعثوا للتدريس في بعض البلدان الأخرى ، وإن المتابع لما ينشر من مذكرات بعض العلمانيين في البلاد التي لم تبتلى بهذه المدارس ليتبين له بجلاء ووضوح الدور الكبير الذي قام به العلمانيون العرب من الذين استقدموا للتدريس في تربية طلابهم وإقناعهم بالعلمانية، سواء من خلال التنظيمات الحزبية أم من خلال البناء الفكري الثقافي لأولئك الطلاب .

٥- من خلال الجمعيات والمنظمات والأحزاب العلمانية

التي انتشرت في الأقطار العربية والإسلامية، مابين يسارية وليبرالية وقومية وأممية وسياسية واجتماعية وثقافية وأدبية، بجميع الألوان والأطياف وفي جميع البلدان، حيث إن النخب الثقافية في غالب الأحيان كانوا من خريجي الجامعات الغربية أو الجامعات السائرة على النهج ذاته في الشرق، وبعد أن تكاثروا في المجتمع عمدوا إلى إنشاء الأحزاب القومية أو الشيوعية أو الليبرالية ، وجميعها تتفق في الطرح العلماني ، وكذلك أقاموا الجمعيات الأدبية والمنظمات الإقليمية أو المهنية ، وقد تختلف هذه التجمعات في أي شيء إلا في تبني العلمانية ، والسعي لعلمنة الأمة كل من زاوية اهتمامه، والجانب الذي يعمل من خلاله .

ومن الأمور اللافتة للنظر أن أشهر الأحزاب العلمانية القومية العربية إنما أسسها نصارى بعضهم ليسوا من أصول عربية، أمثال "ميشيل عفلق" و"جورج حبش" ، والكثرة الساحقة من الأحزاب الشيوعية العلمانية إنما أسسها يهود مليونيرات أمثال "كوريل".

٦- من خلال البعثات الدبلوماسية :

سواء كانت بعثات للدول الغربية في الشرق، أم للدول الشرقية في الغرب، فقد أصبحت في الأعم الأغلب جسورا تمر خلالها علمانية الغرب الأقوى إلى الشرق

الأضعف من خلال الإيفاد ، و من خلال المنح الدراسية وحلقات البحث العلمي، والتواصل الاجتماعي، والمناسبات والحفلات ، ومن خلال الضغوط الدبلوماسية والابتزاز الاقتصادي، وليس بِسِرٍّ أن بعض الدول الكبرى أكثر أهمية وسلطة من القصر الرئاسي أو مجلس الوزراء في تلك الدول الضعيفة التابعة .

٧- من خلال وسائل الإعلام المختلفة :

من مسموعة أو مرئية أو مقروءة، لأن هذه الوسائل كانت من الناحية الشكلية من منتجات الحضارة الغربية- صحافة أو إذاعة أو تلفزة – فاستقبلها الشرق واستقبل معها فلسفتها ومضمون رسالتها، وكان الرواد في تسويق هذه الرسائل وتشغيلها والاستفادة منها إما من النصارى أو من العلمانيين من أبناء المسلمين ، فكان لها الدور الأكبر في الوصول لجميع طبقات الأمة ، ونشر مبادئ وأفكار وقيم العلمانية ،وبالذات من خلال الفن ، وفي الجانب الاجتماعي بصورة أكبر .

هكذا سرت العلمانية في كيان الأمة ، ووصلت إلى جميع طبقاتها قبل أن يصلها الدواء والغذاء والتعليم في كثير من الأحيان، فكان كما يقول المثل "ضغثٌ على إبالة"، ولو كانت الأمة حين تلقت هذا المنهج العصري تعيش في مرحلة قوة وشموخ وأصالة لوظفت هذه الوسائل الإعلامية توظيفا آخر يتفق مع رسالتها وقيمها وحضارتها وتاريخها وأصالتها .

٨- من خلال التأليف والنشر في فنون شتى من العلوم وبالأخص في الفكر والأدب :

فقد جاءت العلمانية وافدة في كثير من الأحيان تحت شعارات المدارس الأدبية المختلفة، متدثرة بدعوى رداء التجديد والحداثة، معلنة الإقصاء والإلغاء والنبذ والإبعاد لكل قديم في الشكل والمضمون وفي الأسلوب والمحتوى، ومثل ذلك في الدراسات الفكرية المختلفة في علوم الاجتماع والنفس والعلوم الإنسانية المختلفة، حيث قدمت لنا نتائج كبار ملاحدة الغرب وعلمانييه على أنه الحق المطلق، بل

العلم الأوحد ولا علم سواه في هذه الفنون . وتجاوز الأمر التأليف والنشر إلى الكثير من الكليات والجامعات والأقسام العلمية التي تنتسب لأمتنا اسما ولغيرها حقيقة ، وإن كان الأمر في أقسام العلوم الأخرى من طب وهندسة ورياضيات وفيزياء وكيمياء وأمثالها يختلف كثيرا ولله الحمد والمنة ، وهي الأقسام التي وجهها أبناء الأمة الأوفياء ممن لم يتلوثوا بلوثات العلمانية، فحاولوا أن ينقلوا للأمة ما يمكن أن تستفيد منه من منجزات التقدم الغربي مع الحفاظ على هويتها وأصالتها وقيمها .

٩- من خلال الشركات الغربية الكبرى التي وفدت لبلاد المسلمين مستثمرة في الجانب الاقتصادي :

لكنها لم تستطع أن تتخلى عن توجهاتها الفكرية، وقيمها وأنماط حياتها الاجتماعية ، وهذا أمر طبيعي، فكانت من خلال ما جلبته من قيادات إدارية وعمالة فنية احتكت بالشعوب الإسلامية سببا مهما في نشر الفكر العلماني وقيمه الاجتماعية و انعكاساته الأخلاقية والسلوكية، ولعل من المفارقات الجديرة بالتأمل، أن بعض البلدان التي كانت تعمل فيها بعض الشركات الغربية الكبرى من أمريكية وبريطانية لم تبتل بالتنظيمات اليسارية، ولم تنشأ إلا في هذه الشركات في أوج اشتعال الصراع بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الغربي."[١]

وقد استهدفت هذه الحملات العلمانية كل الدول الإسلامية، على أن أكثرها استهدافا خاصة في إرهاصاتها الأولى كان مقر الخلافة العثمانية (تركيا).

(١) ينظر: العلمانية .. التاريخ والفكرة د . عوض بن محمد القرني مقال على موقع صيد الفوائد

حيث بدأت حركة التغريب في عهد السلطان محمود الثاني الذي تولى الحكم في القرن الثامن عشر الميلادي، حيث قام بإنشاء جيش جديد على غرار الجيوش الأوروبية، واستبدل بالقوانين الإدارية قوانين جديدة على غرار القوانين الأوروبية، كما أصدر قوانين تتعلق باللباس وأجبر الموظفين والعسكريين على لبس الطربوش وحلق اللحية، وقد لاقت هذه التغييرات معارضة قوية من قبل الشعب حيث أطلق على السلطان لقب (السلطان الكافر).

وفي العام ١٨٦٠م تبين أن التنظيمات ليست كافية لجعل الدولة العثمانية دولة متقدمة في مصاف الدول الأوروبية، وكان لا بد من القيام بثورة جديدة من أجل تحقيق ذالك.

وقد قاد المعارضة للنظام السياسي نامق كمال، وضياء كوك ألب ، كما أن الشباب الذين تأثروا بالثقافة الفرنسية أثناء وجودهم في فرنسا لطلب العلم شكلوا جمعية الشباب العثماني عام ١٨٦٥م وقاموا بإعداد دستور جديد وطالبوا بفتح البرلمان وإعطاء السيادة في الحكم للشعب، ونتيجة لعملهم السري والمعلن في الخارج والداخل استطاعوا الوصول لبناء أرضية للنظام البرلماني والسياسي الجديد الذي شكل القاعدة للنظام العلماني في البلاد.

وإذا كان ما سبق يمثل الإرهاصات الأولى للعلمانية في إمبراطورية إسلامية فإن تولي المرتد مصطفي كمال أتاتورك الحكم بعد حرب التحرير وضع للعلمانية قواعد وأسسا ظلت راسخة حتى يومنا بشكل أو بآخر.

في البدء لم يظهر أتاتورك أي مظاهر معادية للدين، بل إنه بعد أن قاد حرب التحرير قام بممارسات ذات طابع ديني ، حيث ألقى خطبة الجمعة في مدينة بالي كسير، وعندما ترأس المجلس الوطني الكبير عين مساعدين له من شيوخ الطرق الصوفية،(قارن بين هذه الأفعال وأفعال محمد على بداية توليه الحكم في مصر) ولكن أتاتورك لم يخف نياته طويلا، وما لبث أن قام بحملة على المجتمع التقليدي

في تركيا والمظاهر الدينية التي تمثل أبرز معالمه، وحارب ممارسات المجتمع وقمع رموزه مع إعلان الجمهورية العلمانية في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م، ثم ألغى الخلافة الإسلامية في العام التالي وبعدها المحاكم الشرعية الدينية، وبدأ منذ العام ١٩٢٥م في تغريب تركيا ثقافة وحضارة وممارسات، وتكريس دور الجيش كحارس للنظام العلماني الكافر الجديد .

في الوقت نفسه كانت مصر تتعرض لحملات تغريبية ذاقت منها الويلات، فبين نار الاستعمار الإنجليزي ، وجحيم الصراعات السياسية عانت البلاد من انتشار أفكار المستغربين من أبناء البلاد الذين رجعوا من بعثات تغريبية في بلاد العلمانية الكافرة ، أو تشبعوا بأفكارهم من الكتب الواردة مع الاحتلال من أمثال : رفاعة الطهطاوي ، ومرقص فهمي ، وجمال الدين الشيعي الإيراني المعروف بالأفغاني وأحمد لطفي السيد ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين، وعلي عبد الرازق ، وطه حسين ، ومحمود عزمي ...وغيرهم كثير وكثير

* * *

ومن ثم يمكن القول : إن الإلحاد المعاصر في بلاد الإسلام يمكن تفسيره على أنه الموجة الثانية للفصل بين الإسلام والحياة بعد فشل المحاولة الأولى التي حاول بعض المستغربين استيرادها من النموذج الأوروبي من خلال العلمانية والليبرالية التي انتشرت بعد الثورة الصناعية .

فبعد إسقاط الخلافة الإسلامية (العثمانية) حاول مصطفي كمال أتاتورك (١٨٨١ - ١٩٣٨) بناء دولة علمانية وإلحاق تركيا بالمجتمع الأوروبي فقام بإغلاق جميع المدارس الإسلامية ومنع ارتداء العمامة والحجاب[1] أو أي رموز أخرى فيها إشارة إلى الدين الإسلامي ، بل وألزم الأتراك (المسلمين) بلبس

---

(١) من المفارقات الغريبة أن زوجة كمال أتاتورك كانت تلبس الحجاب ..!!

القبعة، وألغى العيدين واستبدل عيد الجمعة بعيد الأحد، ومنع الصلاة في مسجد آية صوفيا أكبر مساجد العاصمة وحوله إلى متحف ، وألغى اللغة العربية ومنع استخدامها نهائيا ، وأجبرهم على الكتابة من اليسار لليمين ، وألغى الزواج الشرعي وجعله مدنيا، ومنع تعدد الزوجات ، وأوقف العمل بالتقويم الهجري واستبدله بالميلادي.

وفي إيران تأثر الشاه رضا خان الذي حكم من ١٩٢٥ إلى ١٩٤١م بمبادرة أتاتورك فقام بمنع الحجاب ، وأجبر رجال الدين على حلق لحاهم ، وحذا حذوه في كثير من إلحاده ، ولكن هذه المحاولات لكونها مفاجئة وقهرية ومعارضة للإسلام الذي ظل منتشرا لأكثر من ألف عام كانت ظاهرية إلى حد كبير وظل الدين كامنا في نفوس المسلمين.

أما فكرة الإلحاد التي انتشرت في أورُبـّة فقد كانت موجهة ضد تدخل رجال الكنيسة الكاثوليكية في السياسة والعلم، و لم تكن لها نظرة شمولية عن الأديان الأخرى، بل ظهرت لمعالجة ظروف محددة ووضع متفاقم، لا يمكن تعميمه.

ولكن في النهاية وللأسف نجحت المحاولات في إدخال الفكر العلماني الإلحادي إلى بلاد الإسلام.

ومن أهم أسباب هذا النجاح ظهور بعض الحركات المنتسبة للإسلام تحت غطاء التجديدية والانفتاح ، والتي حاول أصحابها إحياء أفكار الغرب في بلاد الإسلام وبروح إسلامية –إن صح التعبير- بين المسلمين مستغلين الانحطاط الثقافي والديني في بلاد المسلمين ، وأوضح مثال على ذلك هو جمال الدين الإيراني المعروف بالأفغاني (١٨٣٨ – ١٨٩٧) .

صفحات لا بد منها للـــه ثم للتـــاريخ [1]

جمال الدين الأسد بادي المعروف بالأفغاني، اسم كبير يختفي وراءه مخادع بارع.

وجمال الدين [2] هو : محمد جمال الدين بن السيد صفدر الحسيني الأسد بـــادي نسبة إلى أسد آباد بالقرب من همذان بإيران، ولد سنة ١٨٣٨م ، وتوفي ســـنة ١٨٩٧م ، فهو إيراني شيعي و لم يكن أفغانيا ،كما لم يكن سُنيا حنفي المـــذهب كما زعم .

قال الدكتور علي الوردي المؤرخ العراقي في مقابلة معه (نُـــشِرت في صـــفحة (النافذة الفكرية) من جريدة العراق بتاريخ ١٩٨٣/١٢/٧م) : " درس الأفغـــاني في النجف في بداية حياته، فاستفاد ممَّا في حلقات النجف من دراسات فلـــسفية

---

(١) هذه الصفحات مستفادة من:" تاريخ الأستاذ الإمام للشيخ محمد رشيد رضا ،والإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين ،ودعوة جمال الدين الأفغاني في الميزان للأستاذ مصطفي فوزي غزال ، و لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث للمؤرخ العراقي الدكتور علي الوردي " وكلها مراجع مهمة لا يستغنى عنها لفهم الحياة الفكرية المعاصرة

(٢) الأسماء أو الصفات المنسوبة للدين أو الإسلام بها شيء من الكراهة مثل جمال الـــدين ، بهـــاء الدين، نور الدين، شمس الدين ، نور الإسلام ، شيخ الإسلام ، حجة الإسلام .

وذلك لأن الإسلام دين سماوي ، فلا شيخ له، ولكن الشيخ يكون لأتباعه، فالأفضل يكـــون شـــيخ المسلمين ،أو حجة المسلمين ، والإمام المطلق هو النبي صلى الله عليه وسلم فإن صحت لفظة شـــيخ الإسلام أو حجة الإسلام فلا تطلق إلا على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومهما بلغ علم العالم فـــلا يبلغ أن يكون شيخا للإسلام، ولكن يكون شيخا للمسلمين . فالإسلام أكبر من أن يكون له شيخ، والمسلمين لا بد لهم من شيخ أو شيوخ.

فالدين نوره وجماله وبهاؤه لا يمكن حصرها في شخص مهما كان هذا الشخص.

وكلمة إسلامي عرفت بعد القرون المفضلة وظروف نشأتها كانت للتمييز بـــين الكفـــر والإســـلام فالإسلامي يقابله الكفري .ومن ثم لا نستطيع أن ننسب أفعال الأشخاص للإسلام بل الأفعال تنسب للأشخاص . فالإسلام ننسب له الأحكام . والأشخاص ننسب لهم الأفعال فلا نقـــول:(العمـــارة الإسلامية بل نقول عمارة المسلمين، ولا نقول التاريخ الإسلامي بل نقول تاريخ المسلمين ، ولا نقول حزب إسلامي بل نقول حزب مسلمين ، ولا نقول مشروع إسلامي...إلخ والله أعلم بالصواب

قديمة ... شاء القدر أنْ يسافر إلي الهند واحتكَّ هناك ببعض معالم الحضارة الحديثة، ثمَّ سافر إلي أفغانستان وشارك في بعض معاركها الحربية والسياسية، وكانتْ أفغانستان يوم ذاك ميدان صِراع عنيف بين بريطانيا وروسيا، ثمَّ وصل الأفغاني أخيرا إلي مصر، وكان في مصر يوم ذاك تيَّاران متصارعان، أحدهما : ديني متزمِّتْ، والآخر عصري متفرنج ؛ وهنا لعب الأفغاني دوره إذ حاول التوفيق بينَ التيَّارينِ علي طريقة ابن رشد، والتفَّ حوله شبَّان أعجبوا به وبطريقته ."

جاء مصر لأول مرة أوائل سنة ١٨٧٠م ، وقدم نفسه على أنه أفغاني ،وكان يَظْهَر في كل أرض باسم جديد، وينتحل شخصيات مختلفة، حسب ما تقتضيه الظروف

قال الوردي: وقد اعتاد الأفغاني أن يغير لقبه كلما انتقل من بلد إلى آخر؛ فقد رأيناه في مصر وتركيا يلقب نفسه بالأفغاني، بينما هو في إيران يلقب نفسه بالحسيني !!

ويتضح من أوراقه المحفوظة أنه كان يتخذ ألقابا أخرى ؛ مثل:
(الإستانبولي) و(الكابلي) و(الروسي) و(الطوسي)، و(الأسدآباذي)

وكان الأفغاني يغير زيَّه ولباس رأسه مثلما كان يغير لقبه؛ فهو في إيران يلبس العمامة السوداء التي هي شعار الشيعة، فإذا ذهب إلى تركيا ومصر؛ لبس العمامة البيضاء فوق طربوش تارة، وبغير طربوش تارة أخرى، وقد لبس الطربوش مجردا في أورُبَّة أحيانا، أما في الحجاز؛ فقد لبس العقال والكوفية، وقيل: إنه في بعض جولاته لبس العمامة الخضراء، ومن يدري فربما لبس القبعة أحيانا "

وقال الأستاذ مصطفي فوزي غزال:" فهذا يدل على أن له مهمة خفية يسعى لتنفيذها، وأنه يوجد وراءه من يخطط له، ويطلب منه التلون بهذه الألوان، والتسمي بتلك الأسماء."

وقال أيضا : " لو تتبعنا حياته الدراسية من مبدئها إلى منتهاها؛ لبدا لنا أنها كانت شيعية كلها، فقد تنقل من مدرسة إلى أخرى، ومن بلدة إلى أخرى، ومن شيخ إلى آخر، وفي كل ذلك يتقلب من مجالات شيعية بحتة.

فهو درس في قزوين -وهي مدينة إيرانية-دراسته الابتدائية، ويقال: إنه سجن فيها مع البابي قاتل الشاه ناصر الدين.

ثم انتقل إلى طهران؛ ليدرس العلوم الشرعية، وتابع دراسته.

ثم انتقل إلى العراق؛ ليدرس الدراسات العليا في العتبات المقدسة التي إليها يحج طلاب العلم الشيعي من جميع أنحاء العالم..

وقد أثبت تشيعه الدكتور علي الوردي في كتابه :"لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث" وذلك عندما ذكر سعي جمال الدين في محاولة التقريب بين الشيعة والسنة، فذكر رسائله إلى علماء الشيعة.

قال الوردي: "وصلت رسائل الأفغاني إلى علماء الشيعة، والظاهر أنه عرف كيف يخاطبهم ويؤثر في عقولهم؛ لأنه كان واحدا منهم في سالف الأيام...وحتى مشايخه جميعهم من الشيعة، فقد عدّ المترجمون من مشايخه أغاخان صادق، وهو شيعي، والشيخ مرتضى شيعي."

و قال أيضا :" كان (الأفغاني) يكره الحلو ويحب المر ، ويكثر من الشاي والتبغ ، وإذا تعاطى مسكرا ، فقليلاً من الكونياك ".(١)

و أكد ذلك محمد رشيد رضا الذي قال : "كان الأفغاني يشرب قليلا من الكونياك (وهو نوع من الخمر) " (٢)

---

(١) ينظر : لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث (٣/١١٣)

(٢) ينظر : تاريخ الأستاذ الإمام (١/٤٩) .

و كان جمال الدين ممن يشجع على السفور ، بل هو باذر نبتته ، فقد نقل أحمد أمين عن جمال الدين أنه كان يقول : " وعندي أنه لا مانع من السفور إذا لم يُتَّخذ مطيَّة للفجور " (١)

وقد تبنى هذه الفكرة تلامذته من بعده، و نشروها بكل جد واجتهاد و خصوصا تلميذه محمد عبده .

ـ وذكر الشيخ يوسف النبهاني مفتي بيروت أنه : " اجتمع به – أي بالأفغاني- سنة ١٢٨٧ هـ في مصر حين كان مجاورا بالأزهر ولازمه من قَبْل المغرب إلى قُرْب العِشاء فلم يُصَلّ المغرب)

كما ذكر مثل ذلك عن تلميذه محمد عبده فقال:" الذي أعلمه من حال الشيخ محمد عبده، وكل من عرفه يعلمه كذلك، أنه حينما كان في بيروت منفيا كان كثير المخالطة للنصارى والزيارة في بيوتهم والاختلاط مع نسائهم بدون تستر. هذا مما يعلمه كل من عرف حاله في هذه البلاد، فضلا عن أسفاره المشهورة إلى بلاد أورُبـَّة واختلاطه بنساء الإفرنج، وارتكابه المنكرات من شرب الخمر وترك الصلوات. و لم يدَّعِ هو نفسه الصلاح، ولا أحد توهمه فيه. فكيف يكون قدوة وإماما في دين الإسلام ، نعم هو إمام الفُسَّاق والمرّاق مثله ، ولذلك تراهم على شاكلته ، لا حج ولا صلاة ولا صيام ولا غيرها من شرائع الإسلام "

وللدكتور محمد محمد حسين رأي مهم في هذا الموضوع سأنقله بطوله لخطورته وأهميته وقد اعتمد في رأيه هذا على كتاب (جمال الدين الأسد بادي) الذي ألفه ابن أخت جمال الدين ، ميرزا لطف الله خان ، يقول في الفصل الثالث من كتابه الإسلام والحضارة الغربية :" أول ما يريب الباحث في أمر الأفغاني تعميته أصله ونسبه، فقد زعم أنه أفغاني سني ، ثم أثبت البحث الحديث بأدلة لا تقبل

(١) ينظر : زعماء الإصلاح في العصر الحديث (ص ١١٤)

الشك أنه كان إيرانيا شيعيا ، وزعم أنه شريف النسب حُسَينيُّ الجد ، وهو زعم لم يقم عليه دليل ، والذي يكذب على الناس في بلده خليق أن لا يُصَدَّق في نسبه.

أما الأدلة على أنه إيراني شيعي ، فهي صريحة متعددة في الكتاب الذي ألفه ابن أخته ميرزا لطف الله خان الذي كان يلازمه في زياراته لإيران وقد مات ابن أخته هذا سنة ١٣٤٠هـ (١٩٢١ – ١٩٢٢م) فعهد ابنه صفات الله الأسد بادي إلى حسين كاظم زاده بنشره، فنشره في برلين لأول مرة سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦م) حيث كان يقيم وقتذاك ، ثم ترجم الكتاب إلى العربية سنة ١٩٥٧م تحت عنوان (جمال الدين الأسد بادي) وقد أثبت المؤلف والمترجمان بأدلة كثيرة أن جمال الدين كان إيرانيا من أسد آباد (بالقرب من همذان) وكان شيعيا ، ولم يكن أفغانيا من أسعد آباد (من أعمال كابل بأفغانستان) ، كما لم يكن سنيا حنفي المذهب ، على ما كان يزعمه وعلى ما هو مشهور حتى الآن بين الناس . فبقية أسرته لا تزال في أسد آباد ، وقد حقق نسبه وزار أسرته عنايت الله خان عم أمان الله خان ملك الأفغان الأسبق . واسم والده واسم خادمه يدلان على أنه شيعي إيراني ، فاسم والده(صَفْدَر) يعني (مفرق الأعداء) وهي عند الشيعة صفة لسيدنا علي رضي الله عنه، والاسم وَقْفٌ على الشيعة لا يتسمى به أحد من الأفغانيين . واسم خادمه الذي كان يلازمه دائما ، والذي تركه بعد رحيله عن مصر في رعاية تلميذه محمد عبده هو (أبو تراب) وهي كنية سيدنا علي رضي الله عنه ولا وجود لهذا الاسم في غير إيران، ولهجة جمال الدين الفارسية تقطع بأنه إيراني ، وأصدقاؤه المقربون الذين كانوا يلازمونه في الآستانة كانوا من الإيرانيين، وكان تفكيره دائما متجها إلي إيران ، وإلى اتخاذها مركزا للجامعة الإسلامية التي كان يدعو إليها كما يبدو من مقال له في العروة الوثقى ...ولكن جمال الدين أخفي أصله الإيراني لأنه كان يريد أن يخفي تشيعه عن الناس في البلاد العثمانية

التي تنقل فيها، وأهلها سنية حنفية كالأفغان. وقد استفاد جمال الدين من انتسابه للأفغان ، لأنه أصبح بعيدا عن سلطة ممثلي إيران وقناصلها في الخارج ، وكان من السهل أن تروج أفغانيته بين الناس في البلاد التي نزلها ، لأن أفغانستان لم يكن لها تمثيل خارجي في ذلك الوقت، وكان للإنجليز نفوذ كبير فيها، فكانوا يرعون أتباعها في الخارج .

ومما يريب الباحث في أمر جمال الدين وأهدافه أيضا أن أكثر نشاطه كان سريا ، فقد كان أول من أدخل نظام الجمعيات السرية في العصر الحديث في مصر ، وكان حيثما حل يؤسس الجمعيات السرية وينشرها ، فأسس الحزب الوطني الحر في مصر أثناء إقامته بها ، وكان حزبا سريا لم يمض على تأسيسه عام واحد حتى أصبح أعضاؤه ٢٠١٨٠ عضوا وأصبح له رصيد ضخم في المصارف ، وأنشأ جمعية (مصر الفتاة) السرية ، وأنشأ صحيفة تنطق باسمها هي " صحيفة مصر الفتاة" ولم يكن فيها مصري واحد، كما روى تلميذه محمد عبده في كتاب (أسباب الحوادث العرابية) ، وكان أغلب أعضائها من شبان اليهود .

وأنشأ أثناء إقامته بالهند جمعية (العروة الوثقى) السرية، التي امتد نشاطها إلى الشام ومصر والسودان وتونس . وكان من أعضائها الأمير عبد القادر الجزائري ومن اختار من أنجاله ورجاله ، ومنهم محمد أحمد المهدي السوداني الذي تتلمذ على جمال الدين في مصر أربع سنوات.

وقد حفظ الجزء الثاني من (تاريخ الأستاذ الإمام) لمحمد رشيد رضا عددا من الرسائل التي تداولها محمد عبده مع أعضاء هذه الجمعية، وهي مليئة بالإشارات والرموز. وبعض هذه الإشارات يدل على أن محمد عبده قد دخل سرا إلى مصر، استعدادا لدخول السودان والاتصال بالمهدي، ومر أثناء هذه الجولة بتونس وبالشام، حيث كان يعمل على (إحكام العروة وتمكين عقودها) حسب تعبيره.

وكانت صحيفة (العروة الوثقى) التي أنشأها جمال الدين مع تلميذه محمد عبده في باريس هي الصحيفة الناطقة باسم هذه الجمعية السياسية السرية.

ثم أنشأ محفلا ماسونيا تابعا للشرق الفرنسي ، ضم إليه عددا كبيرا من أصحاب النفوذ في مصر بمساعدة رياض باشا رئيس الوزراء ، وهو الذي استقدمه إلى مصر ، وتولى رعايته فيها ، وأجرى عليه راتبا شهريا ، وأعد له سكنا في خان الخليلي ، ويقال : إنه كان في حارة اليهود !!

ويتصل بهذا النشاط السري الذي لازمه في كل مكان تهييجه على الثورات، وتشجيعه على تأسيس الصحف التي تخدم أغراضه ، وتنشر آراؤه ، وتشيد بذكره، فهو الذي أنشأ صحيفة (مصر) وعهد بإدارتها إلى أديب إسحق ، وكان قد قدم إلى الإسكندرية للاشتراك في التمثيل المسرحي مع سليم نقاش ، ثم أسس صحيفة (التجارة) بالإسكندرية وعهد بإدارتها إلى أديب إسحق وسليم نقاش ، فكانا لا يزالان يشيدان بذكره في مثل قولهما :"مهبط أسرار الحكمة وإسطرلاب فلك العلوم ، وإسْطَقْس هَيُولَى الفلسفة " إلى غير ذلك مما اعتادا أن يصفاه به ، وقد طلب إلى تلميذيه محمد عبده وإبرهيم اللقاني أن يساهما في تحرير الصحيفة ، وكان هو نفسه يشترك ببعض مقالات يوقعها باسم مستعار هو (مُظهر بن وَضَّاح) .

إن الدارس المدقق لسيرة جمال الدين لا يملك إلا أن يتوقف أمام كثير من الظواهر الغريبة في سيرته. إنه يتساءل فيما تنقله السريع المفاجئ الذي لا يفتر، بين إيران وبلاد الأفغان والهند والحجاز ومصر وتركيا وفرنسا والنمسا وإنجلترا وروسيا ؟ وفيم هذه الأزياء المختلفة التي كان يلبسها لكل بلد، والتي يحفل بصورها كتاب ابن أخته ؟ فهو في زيّ عربي تارة ، وفي زيّ علماء الشيعة تارة أخرى، ومع جماعة من كبار علمائهم و مجتهديهم تارة ثالثة، وفي طربوش تركي تارة رابعة ، وفي زي أفغاني تارة خامسة . فيم كل هذا وباغي الخير لا يحتاج إلى التستر

والتخفي وإنما يتخفي المريب ؟ !! ومن أين كان ينفق على هذه الرحلات؟ وفِيمَ كانت صلته بالمستر بلَنت ؟ ذلك الرجل الغريب الذي كان لا يفتر عن التنقـل بين مضارب الأعراب في مصر وفي سورية وفي نجد ؟ يدعو المصريين إلى الثورة ، ويتكلم بعد وقوعها باسم عرابي ،ويقدم له صورا مضللة عـن صـفته الرسميـة وقدرته السياسية وقوة الجيوش الإنجليزية ثم يدافع عنه بعد اعتقالـه؟ !! ويـدعو العرب إلى إنشاء دولة عربية لأن الدولة العثمانية على وشك السقوط والانحلال ، ولا ينبغي أن يشاركها العرب في هذا المصير فيجب أن يُكَوِّنُوا دولة عربية حليفة لإنجلترا تصبح مقرا للخلافة الإسلامية، ويكتب في ذلك كتابه المشهور الذي سماه (مستقبل الإسلام) والذي كان مصطفي كامل زعيم الحزب الوطني في مـصر أول من تنبه إلى خطورته !! فيم كانت صلة الأفغاني بهذا الرجل ؟ يترل ضـيفا عليه عندما زار إنجلترا ، ويكتب إلى محمد عبده من بورسعيد وهو في طريقه إليها يطلب إليه أن يكون رده بعنوان المستر بلنت ؟ بل فيم كانت صلته بإنجلترا يلجأ إلى سفيرها في الأستانة لكي يساعده على الخروج من تركيا حين غضب عليـه السلطان عبد الحميد ؟ !!

وباسم من كان يفاوض الإنجليز في الوصول إلى اتفاق مع تركيا ضد روسـيا ؟ ومع المهدي للاعتراف باستقلال السودان ؟ ومع هـذا الخليـط مـن اليهـود والنصارى الذي يجتمع حول الرجل الذي كان صوته أعلى الأصوات في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وفي التنديد بفساد المجتمع المسلم والدعوة إلى إصلاحه ؟ ، وسليم نقاش صاحب الكتاب الذي يحمل عنوانا غريبـا في إبّـان الـدعوة إلى الجامعة الإسلامية وهو (مصر للمصريين) شامي نصراني . وأديب إسحق مـن نصارى الشام أيضا، وكان إذا ذكر بعد موته في مجلس الأفغاني جاشت نفـسه بالحزن وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . وطبيبه الخـاص يهـودي يـدعى هرون، وقد كان هو ونصراني آخر يدعى : جورجي كوبجي هما اللذان شـهدا

احتضاره وحدهما ، والذي كان يساعده في تحرير صحيفة العروة الـوثقى مـع محمد عبده رجل مريب من إيران يدعى ميرزا باقر ، كان قد تنصر وصار داعيـة للنصرانية هناك مع جمعية من المبشرين (المنصرين) ثم عاد إلى الإسلام ليشارك في تحرير الجريدة الداعية إلى الجامعة الإسلامية .

ومجالس الأفغاني كانت تضم خليطا من المسلمين والنـصارى واليهـود ، هـذا بالإضافة إلى ما أشيع من أنه كان يترل حارة اليهود ، ومن أنه ألَّف جمعية سـرية أعضاؤها من شباب اليهود . ولماذا كانت عداوته الشديدة للاستعمار الإنجليـزي وحده دون الاستعمار الفرنسي والاستعمار الهولندي ؟ !! فلم ترد في صـحيفة العروة الوثقى إشارة للاستعمار الفرنسي في الجزائر ، كما لم ترد فيهـا إشـارة للاحتلال الهولندي في إندونيسيا، و لم تُشِر الصحيفة إلا إشارة عـابرة لاحـتلال الهند الصينية . نحن نعرف أن الأفغاني كان ينتسب حين دخل مـصر إلى المحفـل الماسوني الأُسكتلندي ، ثم اختلف معه فتحول إلى المحفل الماسوني الفرنسي ، فهل كانت عداوته للإنجليز مبنية على هذا الخلاف مع المحفل الماسوني الأُسكتلندي مع ما هو معروف من استغلال الاستعمار للمحافل الماسونية إلى جانـب مـا هـو معروف من صلتها بالصهيونية ؟

وصفه سليم العنجوري حين ترجم له في شرح ديوان (سِحْر هروت) فقال: إنه سافر إلى الهند وهناك أخذ عن علماء البراهمة والإسلام أجـل العلـوم الـشرقية والتاريخ ...وبرز في علم الأديان حتى أفضى ذلك به إلى الإلحاد والقول بقدَميَّـة العالم ، زاعما أن الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكوِّنة بتـرقّ وتحـوير طبيعيين ما نراه من الأجرام التي تشغل الفضاء ويتجاذبها الجو ، وأن القول بوجود محرِّك أول حكيم وهْمٌ نشأ من ترقي الإنسان في تنظيم المعبود على حسب ترقيـه في المعقولات .

ووصف رشيد رضا الأفغاني بأنه كان يميل إلى: وحدة الوجود. التي يشتبه فيها كلام الصوفية بكلام الباطنية ، وقال: إن كلامه في النشوء والترقي يشتبه بكلام داروين.

وفي كتاب محمد عبده الذي بعث به إليه من بيروت في الخامس من جمادى الأولى سنة ١٣٠٠ هـ بدأه بقوله : ليتني كنت أعلم ماذا أكتب إليك ، وأنت تعلم ما في نفسي كما تعلم ما في نفسك، صَنَعْتَنا بيدك ، وأَفَضْتَ على موادنا صورها الكمالية ، وأنشأتنا في أحسن تقويم، فبك عرفنا أنفسنا ، وبك عرفناك، وبك عرفنا العالم أجمعين ، فعلمك بنا كما لا يخفاك علم من طريق الموجب، وهو علمك بذاتك، وثقتك بقدرتك وإرادتك فعنك صدرنا وإليك إليك المآب.

وفيه يقول مخاطبا الأفغاني :

"فصورتك الظاهرة تجلت في قوى خيالي ، وامتد سلطانها على حسي المشترك، وهي رسم الشهامة ، وشبح الحكمة، وهيكل الكمال، فإليها رُدن جميع محسوساتي ، وفيها فنيت مجامع شهوداتي، وروح حكمتك التي أحييت بها مواتنا ، وأنرت بها عقولنا، ولطّفت بها نفوسنا ،بل التي بَطَنْتَ بها فينا ، فظهرت في أشخاصنا، فكنا أعدادك وأنت الواحد، وغيبك وأنت الشاهد، ورسمك الفوتوغرافي الذي أقمته في صلاتي رقيبا على ما أقدم من أعمالي ومسيطرا عليَّ في أحوالي ، وما تحركت حركة ولا تكلمت كلمة ، ولا مضيت إلى غاية ، ولا انثنيت عن نهاية حتى نطابق في عملي أحكام أرواحك وهي ثلاثة، فمضيت على حكمها سعيا في الخير ، وإعلاءً لكلمة الحق، وتأييدا لشوكة الحكمة وسلطان الفضيلة، ولست في ذلك إلا آلة الرأي المثلث ومالي من إرادة حتى ينقلب مربعا "

وفي هذا الكتاب يقول :

"فإني على بينة من أمر مولاي ، وإن كان في قوة بيانه ما يشكك الملائكة في معبودهم، والأنبياء في وحيهم "

وحكى الشيخ حسن أفندي فهمي عن الأفغاني حين كان في زيارته الأولى للأستانة أنه جعل النبوة صنعة وسوّى بينها وبين الفلسفة ... ولما تصدر الأفغاني في القاهرة للتدريس في الأزهر هاجمه علماؤه [1] وكان الشيخ عُليش (وهو عالم من علماء الأزهر مغربي الأصل مشهور بتدينه وشدة غيرته على الإسلام) أعنفهم في ذلك فكان يروغ بعكازه على جمال الدين وتلاميذه في صحن الأزهر حتى انقطع عنه وأصبح يجتمع بتلاميذه في بيته أو في قهوة البوستة !!

وإذا ذكر الأفغاني فلا بد – لاستكمال الصورة – من أن نذكر معه تلميذه محمد عبده ، والذي نشر مذهبه وقدمه في صيغة مغرية جذبت إليها كثيرا من المخدوعين بظاهرها.

تنقسم حياة محمد عبده الفكرية والسياسية إلى قسمين :

القسم الأول: هو الذي عمل فيه تحت إشراف الأفغاني، وكان فيه خادما لأهدافه، يرى بعينه، ويفكر بعقله، ويكتب بوحيه.

والقسم الثاني: من حياته هو الذي عمل فيه بعد عودته إلى مصر في ظل صداقة اللورد كرومر والمستر بلنت ، مما تشهد به تقارير كرومر السنوية وكتابه عن "مصر الحديثة" وعن عباس الثاني ، ومذكرات المستر بلنت وكتابه (التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر) ، وهي صداقة تركت أثرها في سلوك محمد عبده وفي آرائه.

يقول كرومر في تقريره السنوي عن عام ١٩٠٥م في الفقرة السابعة التي كتبها بعنوان (الشيخ محمد عبده) بمناسبة وفاته : "والأيام وحدها هي التي ستكشف عما إذا كانت الآراء التي تعتنقها المدرسة التي تزعمها الشيخ محمد عبده سوف

---

(١)هذا يخالف ما يُرَوِّج له أنصاره من تأييد الأزهر له كما يزعمون ، ودائما يحاولون إضفاء هالات القداسة عليه وعلى آرائه وأنه كان إماما للأزاهرة، وهذا خلاف الحقيقة، فأنَّى يؤفكون ؟!!

تستطيع التسرب إلى المجتمع الإسلامي . وأنا شديد الرجاء في أن تنجح في اكتساب الأنصار تدريجيا، فلا ريب أن مستقبل الإصلاح الإسلامي في صورته الصحيحة المُبَشِّرة بالآمال، يكمن في ذلك الطريق الذي رسمه الشيخ محمد عبده. وإن أتباعه ليستحقون أن يُعاوَنوا بكل ما هو مستطاع من عطف الأوربي وتشجيعه "

ويشير كذلك في تقرير سنة ١٩٠٦م إلى أنه تشجيعا لهذا الحزب (حزب محمد عبده الإصلاحي) قد اختار أحد رجاله وهو سعد زغلول وزيرا للمعارف ويؤكد أنه " لن يكون هناك محلا للتراجع في كل حال . إن العمل على إدخال الحضارة الغربية في مصر يسير سيرا حثيثا في كل فرع من فروع الإدارة في الدولة على خطوات كانت موضع العناية والدرس تقوم على التطور والتدرج ، دون إحداث انقلاب أو تغيير جذري مفاجئ .

ويقول بلنت في يومياته بتاريخ ١٩٠٠/١/٢٨م عن صديقه محمد عبده :"وعبده لا يؤمن بنهاية سعيدة للجنس البشري ، وأخشى أن أقول : إن محمد عبده بالرغم من أنه المفتي الأعظم ليس له من الثقة في الإسلام أكثر مما لي من الثقة في الكنيسة الكاثوليكية ".

وبلنت كان من المتحررين الذين لا يؤمنون بالمسيحية ، ولا يحسنون الظن بالكنيسة الكاثوليكية ، فَقَدَ إيمانه بقراءة داروين، وكان واقعا تحت تأثير بعض المفكرين الأوربيين ، أمثال رينان وتولستوي الذين يفرقون بين تعاليم المسيح وبين التعاليم المستنبطة من القديس بطرس والكنيسة الكاثوليكية .

كانت هذه وقفة ضرورية، وصفحات لا بد منها لبيان الحق في شخصية ظنها كثير من المسلمين قدوة دينية ، لكنها كانت شخصية إلحادية ، تَرَبَّت في أحضان الشيعة ، وتشربت من أفكارهم البشعة الشنيعة ، فأساءت الفِكْر والصنيعة ، ولهثت العذْرَة و الرَّجيعة . وتبعها كثير من التلاميذ الموالين .

نسأل الله السلامة من كل الآثام، والتوفيق وحسن الختام

والحديث عن جمال الدين الأسد بادي وتلميذه محمد عبده يقودنا إلى الحديث عن المحافل الماسونية ودورها في نشر أفكار الشك و الإلحاد وما أحدثته من صراعات فكرية ، وخلقها لأفكار مظلمة وكلها أفكار فاشلة مبنى ومعنى ، و تلبيسات لبَّسوا بها على الناس فَفُتِنُوا بها واعتنقوا مذاهبها.

على أننا نؤمن أن الصراع بين أهل الإسلام والكفار قائم ما دامت السماوات والأرض سواء تسموا بالكفر أم الإلحاد أم العلمانية أم الليبرالية أم القومية أم الاشتراكية أم أي شيء يعتمد غير الإسلام دينا ومعتقدا .

المطلب الثاني: الماسونية والإلحاد[1]

أصل الكلمة (ماسون أو ميسن) التي تعني بالإنجليزية والفرنسية : بَنَّاء ، وأحيانا يضيفون لها كلمة : فِري ، التي تعني بالإنجليزية : حُر ، فيكون معنى الماسونية : البنائيين أو البنائيين الأحرار .

وبعض الباحثين يُرجع أصل الكلمة إلى أنها تحريف لاسم نبي الله موسى عليه السلام ، ولكنه احتمال ضعيف جدا وبعيد عن الصواب ، وذلك لأن اسم موسى ينطقه اليهود (مُوشيه) ،و اللغة العبرية دائما تقلب حرف السين إلى حرف الشين. كما في كلمات (شمس ، وإسمعيل ، ويوسف) فتنطق بالعبرية (شيمِش ، يِشْمعيل ، يوشِيف) ، والماسونية في أصلها تعتمد على اللغة العبرية كما سيظهر لاحقا ، لذا يبدو أنهم اختاروا اسما من حروف أصلها لاتيني تشترك فيها أكثر من دولة من دول أوربة بحثا عن العالمية من ناحية، وسهولة التدليس في المعنى والتوغل في المجتمعات .

يُرجع بعض الباحثين تأسيس الماسونية إلى الملك هيرودس إكريبا (ت ٤٤م) ملك الرومان بمساعدة مستشارَيه اليهوديَّيْنِ: حيرام أبيود: نائب الرئيس، و موآب لامي: كاتم سر أول. وسموا محفلهم ،(هيكل أو أورشليم) للإيهام بأنه هيكل نبي الله سليمن عليه السلام الذي بناه بالقدس ، وأنهم سيعيدون اكتشافه وبناءه أو ترميمه لذا سموا أنفسهم البنَّائيين !!

ويردد الماسونيون كثيرا قول:" المهندس الأعظم للكون" التي تشير إلى الخالق سبحانه ، إلا أن بعضهم يردها إلى مهندس هيكل سليمن الذي يطلقون عليه :

---

(1) للمزيد في هذا الموضوع ينظر : الماسونية سرطان الأمم لأبي إسلام أحمد عبد الله ، الماسونية تحت المجهر لإبرهيم عباس ، الماسونية في أثوابها المعاصرة لسعد الدين صالح ، الماسونية وموقف الإسلام منها لحمود الرحيلي.

حيرام أبيف ، وذلك على اعتبار أن الكون رمز للهيكل !! وهـذا يـدل علـى ارتباطهم بفكرة التأسيس الأولى .

وكان السبب الرئيس لقيامها ونشأتها مواجهة النصرانية، فكـان هـدفها الأول التنكيل بالنصارى واغتيالهم وتشريدهم ومنع دينهم من الانتشار، لذا عملـت في الخفاء ، واستخدم القائمون عليها الرموز والإشارات كنوع مـن التخويـف ، والإيهام بالقوم والتنظيم، وسموها(القوة الخفية)، وكان هذا أحد انحرافات اليهود عن شريعتهم التي جاء بها موسى عليه السلام .

وإلى الآن لهم عصابات إرهابية لتنفيذ العمليات الإجرامية للتخلص من كل مـن يقف في طريقهم، أو ينشق عنهم ويكشف أسرارهم.

وبعد عهد التأسيس بدأ الانتشار والنفوذ فتسمت بالماسونية لتتخذ مـن نقابـة البنائين الأحرار لافتة تعمل من خلالها، وليتسع نشاطها ويتطور بتطـور التقانـة والأدوات والوسائل .

فالماسونية يهودية صِرفة من الناحية الفكرية، ومن حيث الأهـداف والوسـائل والفلسفة، هي كما قال بعض المؤرخين: آلة صيد بيد اليهودية يـصرعون بهـا الساسة ويخدعون عن طريقها الأمم والشعوب الجاهلة.

في سنة ١٧١٧م تم تأسيس أول وأكبر محفل للماسونية في بريطانيا ، ثم تلتها دول أوربة فرنسا وإيطاليا في بناء المحافل .

في عام ١٧٢٣م كتب جيمس أندرسون (١٦٧٩ - ١٧٣٩) دستور الماسـونية، وكان أندرسون ماسونيا، بدأ حياته كناشط في كنيسة اسكتلندا، وقام بنجـامين فرانكلين بإعادة طبع الدستور في عام ١٧٣٤م بعد انتخابه زعيمـا للمنظمـة الماسونية في فرع بنسلفانيا.

كانت هذا الدستور عبارة عن عدة صفحات لا تتجاوز الأربعين صفحة يـشمل وصف تفصيلي لعجائب الدنيا السبعة ويعتبرها إنجـازات لعلـم الهندسـة، وفي

الدستور تعاليم وأمور تنظيمية للحركة، و يحتوي على عدة أغاني يجب أن يغنيها الأعضاء عند عقد الاجتماعات.

في عام ١٨١٥م أضاف المحفل الرئيسي للماسونية في بريطانيا للدستور نصا يسمح للعضو باعتناق أي دين يراه مناسبا، وبعد ٣٤ سنة قام الفرع الفرنسي بنفس التعديل.

في عام ١٨٧٧م بدأ المحفل الماسوني في فرنسا بقبول عضوية الملحدين إلى صفوف الحركة ، وأثار هذا بعض الخلاف بين محفلي بريطانيا وفرنسا .

وكان مصدر هذا الخلاف تحليلا مختلفا من قبل الفرعين حول بند دستور الماسونية الذي كتب عام ١٧٢٣م والذي ينص على: " لا يمكن أن يكون الماسوني ملحدا أحمقا " !!

فقاموا في عام ١٨٧٧م بإجراء تعديلات جذرية على دستور الماسونية المكتوب عام ١٧٢٣ م، وتم تغيير بعض مراسيم الانتماء للحركة بحيث لا يتم التطرق إلى دين معين بحد ذاته، وأن كل عضو حر في اعتناق ما يريد .

ولكي يصبح الفرد عضوا في المنظمة الماسونية يجب عليه أن يقدم طلبا لمحفل فرعي في المنطقة التي يسكن فيها ، ويتم قبول الفرد أو رفضه في اقتراع بين أعضاء ذلك المحفل، ويشترط للقبول في المنظمة الماسونية أن يكون :

حر الإرادة في زعمهم ، ويؤمن بوجود خالق أعظم بغض النظر عن ديانة الشخص (كيف يقبلون ملحدا ، وفي نفس الوقت يشترطون الإيمان بوجود خالق أعظم بغض النظر عن ديانة الشخص !!) ، ولكن هناك محافلا للمنظمة كالتي في السويد يقبل فيها فقط الأعضاء الذين يؤمنون بالديانة المسيحية

(لاحظ أن أصل الماسونية قام للقضاء على النصرانية !!) وهذا تطور فكري وتنظيمي سيظهر أثره بعد قليل، أن يكون قد بلغ ١٨ سنة من العمر وفي بعض المقرات ٢١ سنة من العمر.

أن يكون سليما من ناحية البدن والعقل والأخلاق ويكون ذا سمعة حسنة.

أن يكون حرا وليس مأمورا..!!

أن يتم تزكيته من قبل شخصين ماسونيين على الأقل.

أن يكون حاملا للقب جامعي على الأقل...!!

يتم قبول العضو الجديد في جو مرعب مخيف وغريب حيث يقاد إلى الرئيس معصوب العينين، و يؤدي يمين حفظ السر، وعندما يفتح عينيه يفاجأ بسيوف مسلولة حول عنقه، وبين يديه نسخة من كتاب العهد القديم ومن حوله غرفة شبه مظلمة فيها جماجم بشرية وأدوات هندسية مصنوعة من خشب، و ذلك لِبَثِّ المهابة في نفس العضو الجديد ، وإشعاره بجلالة وعظمة الحدث .

وهذه سياستهم منذ قديم الزمان ، يحاولون إظهار الغموض والسرية ، وربما افتعلوا بعض القصص ، أو أحدثوها بالفعل ليعمقوا هذا المعنى في نفوس الأعضاء وغير الأعضاء ، حتى لا يخرجوا عن أوامر أسيادهم وزعمائهم ، وبذا يُدخلون الرعب في قلب كل من تسول له نفسه عداءهم أو استعداءهم.!!

ويصر أعضاء منظمة الماسونية على أنها ليست عبارة عن دين وليست بديلة للدين. ويشترطون على من يلتحق بها التخلي عن كل رابطة دينية أو وطنية أو عِرقية ويسلم قياده لها وحدها ، فلا يفعل إلا ما يُملْونه عليه ، ويكون ولاؤه وانتسابه إليهم فقط !!

وإذا كانت الماسونية ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ ، فما العلمانية إلا ثمرة من ثمارها العَفِنَة ، وما الاشتراكية إلا مولود مُشَوه من سِفَاح أفكارها المتطرفة، وفلسفتها المنحرفة ، ولا غَرْو أن تتربى في أحضانها وتحت رعايتها كل السواقط واللواقط، ويعتنق أبناؤها دينا رسموه ، وفُحْشا ألِفُوه فهم ملاحدة مبنى ومعنى وهدفا وإيمانا ، يكفرون بالله ورسله وكتبه وبكل الغيبيات ويعتبرون ذلك خزعبلات وخرافات، يعملون على تقويض الأديان والشرائع السماوية تحت

مظلة القومية والوطنية والأخوة ، ويحاولون السيطرة على الحكومات الشرعية من خلال تجنيد أعضائها من الوزراء والملوك و الرؤساء، والانضمام لنـــواديهم الـــتي أنشؤها مثل الروتاري والليونز، فإن تعذر عليهم عملوا على إسقاطها واستبدالها بمن يعمل معهم وتحت إمرتهم.

وفي سبيل ذلك يُبيحون كل الوسائل للوصول للهدف والغاية ، مبدؤهم (فـــرق تسد) يُقسمون كل الأمم (غير اليهود) إلى أمم متصارعة ، عن طريق بث سمـــوم التزاع داخل البلد الواحد وإحياء الفتن وإزكاء العنصرية والطائفية، وهدم المبادئ الأخلاقية والفكرية والدينية ونشر الفوضى والانحـــلال والإرهـــاب والإلحـــاد، مستغلين وسائل الإعلام وأدوات الدعاية ، واستعمال الرشوة بالمال وغـــيره مـــع الجميع وخاصة مع ذوي المناصب والوجهاء وأصحاب الرأي واتخاذ القرار.

و إذا تململ الشخص أو عارض في شيء من أمورهم دبروا له فضيحة كـــبرى، وقد يكون مصيره القتل.

يُفعِلون مبدأ التشكيك عن طريق بث الأخبار المختلقة، والأباطيـــل والدســـائس الكاذبة حتى تصبح كأنها حقائق، للتلاعب بعقول الناس وطمس الحقائق أمامهم.

ولهم مع الشباب جولات وصولات ، فبعد نشر الأفكـــار المنحرفـــة ، وتـــشويه الأخلاق والفضائل يقومون بدعوة الشباب والشابات إلى الانغماس في الرذيلـــة وتوفير أسبابها لهم وإباحة الاتصال بالمحارم وتوهين العلاقات الزوجيـــة وتحطـــيم الرباط الأسري.

كما يدعون إلى قطع النسل خاصة لدى المسلمين عن طريق ما يـــسمى تحديـــد النسل، ونشر أكاذيب يسمونها خطورة الزيادة السكانية.

إن الماسونية في حقيقتها عبارة عن منظمة سياسية اقتصادية ، هـــدفها الـــرئيس : هو الهيمنة على العالم ، بالسيطرة على رجالات ومقرات صنع القرار، والـــتحكم

في وسائل الإعلام والاقتصاد العالمي ، والتغلغل في كل نواحي الحياة وخصوصا الحيوية منها .

وكل التيارات والأفكار المتطرفة التي عرفها العالم مؤخرا مثل الشيوعية والاشتراكية، والعلمانية، والليبرالية، والبهائية، والثورات والحركات الثورية الفوضوية المعروفة بالأناركية أو اللاسلطوية ما هي إلا وجوه قبيحة أفرزتها المحافل الماسونية العالمية،وكلها تهدف إلى طمس الهُويات الدينية و الشخصية، والانصهار في بوتقة واحدة يسمونها العولمة.

ويفرضون ذلك على الأمم والشعوب من خلال الاتفاقات والمعاهدات الدولية، هذا وإلا.. فالحظر الدولي، والتضييق السياسي لتجويع الشعب وإدخاله في دائرة الضعف والتدهور والانحطاط.

وحركة مصطفي كمال أتاتورك وجمال الدين الأسد بادي الإيراني ما هي إلا حركات و تيارات تفرعت وانبثقت من الماسونية العالمية، حَرَّكتها أيادي الكبار ، وأنزلت على هذه الشخصيات صفات العبقرية والألمعية ، وما تشتهيه الأنفس من التبجيل والتعظيم فانخدع بهم خلق كثير .

وفي الوطن العربي وحده استطاعوا خداع ألفي رجل من كبار الساسة والمفكرين وأسسوا بهم المحفل الرئيسي المسمى بمحفل الشرق الأوسط [(١)]

وفيه تم إخضاع هؤلاء الساسة لخدمة الماسونية، وأعلنوا شعارات براقة تخفي حقيقتهم فخدعوا كثيرا من المسلمين، ثم انتشروا كالسرطان .

---

(١) مصطلح الشرق الأوسط أطلقه الماسون على الوطن العربي كنوع من أنواع التغريب والبعد عن أي شيء ينسب للعرب والوحدة العربية، وأشاعوه في أبحاثهم وقنواتهم حتى استساغه العرب وكرروه وتركوا الكلمة الأصلية وهي الوطن العربي أو الشرق الإسلامي فلنستمسك بالأصل الذي هو خير.

وجُل أعضائها من الشخصيات التي يجعلونها مرموقة في العالم، يوثقهم عهد بحفظ الأسرار ويقيمون بما يسمى بالمحافل للتجمع والتخطيط والتكليف بالمهام.

ويعتمدون على أهل الانحلال والفُسَّاق من الممثلين ومجانين الشهرة وعُبَّاد المال ومن أشهر من ينتسب لمحافلهم :

** آدم وايزهاويت المسيحي الألماني (ت ١٨٣٠م) استقطبته الماسونية فألحد ووضع الخطة الحديثة للماسونية التي تتضمن أصول الشيوعية. وانتهى المشروع سنة ١٧٧٦م، ووضع أول محفل في هذه الفترة (المحفل النوراني)

** ميرابو، كان أحد المشاهير وأحد قادة الثورة الفرنسية.

** جوزيي مازيني الإيطالي (ت ١٨٧٢م) الفيلسوف والسياسي المعروف.و أحد المساهمين بقوة في قيام الدولة الإيطالية الحديثة.

** ألبرت مايك الجنرال الأمريكي الذي وضع الخطط التدميرية الماسونية موضع التنفيذ.

** ليوم بلوم الفرنسي المكلف بنشر الإباحية فأصدر كتابا بعنوان (الزواج) لم يعرف أفحش منه.

** كودير لوس اليهودي صاحب كتاب (العلاقات الخطرة).

** جان جاك روسو الكاتب السويسري المعروف الهالك سنة ١٧٧٨م

** فولتير واسمه الحقيقي: فرانسوا ماري أرويه وهو كاتب فرنسي معروف هلك سنة ١٧٧٨م

** كارل ماركس اليهودي الألماني هلك سنة ١٨٨٣م .

** فريدريك بارثولدي ، مصمم تمثال الحرية

** جورجي زيدان الأديب اللبناني المتوفى سنة ١٩١٤م

** فايكاونت بينيت رئيس وزراء كندا الأسبق

** جيمس جارفيلد الرئيس الأمريكي الأسبق

** آرثر دويل مؤلف تشيرلوك هولمز

** إدوارد السابع ملك بريطانيا

** إدوارد الثامن ملك بريطانيا

** إدجار هوفر مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي .

** لينين ، أحد مؤسسي الاتحاد السوفييتي وأول رئيس له، هلك سنة ١٩٢٤

** ستالين أحد مؤسسي الاتحاد السوفييتي وهو ثاني رئيس له هلك سنة ١٩٥٣م

** حافظ الأسد الرئيس السوري السابق

** ميتران الرئيس الفرنسي السابق

** جيسكار ديستان الرئيس الفرنسي السابق

** الملك فاروق، آخر ملوك مصر والسودان

** السادات ، كان أستاذ أعظم في المحفل الأكبر السوري من سنة ١٩٥٨م

** بشارة الخوري، أول رئيس للجمهورية اللبنانية بعد الاستقلال، توفى سنة ١٩٦٤م

** سامي الصلح رئيس الوزراء اللبناني الأسبق

** مارجريت تاتشر اختارت ٢١ وزيرا ماسونيا منهم وزير الداخلية (ليون بريتن) ووزير المالية (نايجل لوصون) ووزير التعليم (كيث جوزيف)

** ستيوارت يونج رئيس هيئة الإذاعة البريطانية السابق

** في إيطاليا سنة ١٩٨١ تم ضبط تنظيم ماسوني يضم كبار الوزراء وضباط الجيش والبوليس

** موتسارت الموسيقار النمساوي الشهير ، توفي ١٧٩١م

** جوته الكاتب الألماني المعروف المتوفى ١٨٣٢م

** الخديوي توفيق سادس حكام مصر من أسرة محمد علي وتوفي سنة ١٨٩٢م

** جمال الدين الأسد بادي (الأفغاني)

** محمد عبده

** سعد زغلول

** فؤاد سراج الدين السياسي المصري المعروف و مؤسس حزب الوفد الجديد

** يوسف وهبي الممثل المعروف

** سوزان مبارك زوجة الرئيس المصري السابق وهي راعية النوادي الماسونية في مصر (الليونز والروتاري)

** علي جمعة المفتي المصري السابق وهو عضو نشط بالنوادي الماسونية

** معظم الممثلين(الأكثرية الكاثرة) ينتمون لنوادي الماسونية (الروتاري ، والليونز) ، ويخدمون أهدافها دون أدنى شك .

وهذه الشخصيات وغيرها لا نقطع بإلحادها جميعا فبعضهم (القلة النادرة إن وجدت) ربما خدعته الشعارات والأنشطة التي ظاهرها الخيرية ، وربما بعضهم دخلها عن جهل ، وذكر أسمائهم ليس تشهيرا ولا إساءة فهم كانوا يقولون ويفتخرون بذلك ولكن للحذر من كلامهم وآرائهم وعدم الاغترار بهم .

مع الاعتبار أيضا أن الماسونيين أنفسهم ينسبون بعض الشخصيات المرموقة إلى الماسونية بعد وفاتهم ويقولون: كان ماسونيا متخفيا ليُغروا غيرهم للانضمام إليهم، خاصة من الشخصيات الدولية .

إن أقوى دولة علمانية وهي الولايات المتحدة مبنية أساسا على المفاهيم الماسونية إذ إن معظم من وقعوا على دستور الولايات المتحدة وكثير من رؤساء الولايات المتحدة ماسونيين على رأسهم جورج واشنطن وبنجامين فرانكلين .

في عام ١٩٧٩م أصدرت جامعة الدول العربية القرار رقم ٢٣٠٩ والتي نصت فيه على اعتبار الحركة الماسونية حركة صهيونية لأنها تعمل بإيحاء منها لتدعيم أباطيل الصهيونية وأهدافها كما أنها تساعد على تدفق الأموال على إسرئيل من

أعضائها الأمر الذي يدعم اقتصادها ومجهودها الحربي ضد الدول العربية حسب بيان الجامعة.

و في نوفمبر عام ١٩٨٣م صرح زعيم الفاتيكان يوحنا بولس الثاني نصا:" لا يمكن أن تكون كاثوليكيا وماسونيا في نفس الوقت ."

و تأخر الأزهر في تصريحه كالعادة .. !! إلى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٨٤م حيث أصدر فتوى كان نصها: "إن المسلم لا يمكن أن يكون ماسونيا لأن ارتباطه بالماسونية انسلاخ تدريجي عن شعائر دينه ينتهي بصاحبه إلى الارتداد التام عن دين الله."

وخلاصة العقيدة الماسونية الحالية : يؤمنون بعقيدة تزدوج فيها الصهيونية والبروتستانتية ، وأن هذا الإتحاد بينهما سيكون السبب في بناء هيكل مزعوم على أنقاض المسجد الأقصى ، وهذا يفسر لنا الاندماج التام والتوءمة بين الولايات المتحدة الأمريكية ، وابنتها اللقيطة الصهيونية المحتلة للمسجد الأقصى. كما يفسر التدخل الصهيوني وكثيرا التحكم في صنع القرار الأمريكي ، بل وهم الركيزة الأساسية في اختيار الرئيس الأمريكي نفسه، فهو يعمل من خلال الأجندة الماسونية العالمية ، لا يستطيع مخالفتها قيد أنملة .

هكذا اجتمعت عوامل الإلحاد الغربية ، واتجهت لغزو البلاد الإسلامية ، ولكن يبقى السؤال الأكثر أهمية ، ما تكون عقيدة الملحد خاصة العربي بعدما يترك دينه وإسلامه ؟

المبحث الثالث: عقـــائد الملحـــدين

الملحدون لا يعلمون لأنفسهم مذهبا ولا معتقدا (وهذه حقيقة يعترفون بها ولا ينكرونها)، فكل أفكارهم قائمة على معاداة الدين (أي دين) والتـشكيك في أساسياته ومسلماته التي تتوافق مع الفطرة. و هم لا يفترون من إيهـام النـاس بكلام وأوهام يطلقون عليها "النظريات" ليخدعوهم ويُلبسوا عليهم دينهم

يقول موريس بلوندل (فيلسوف فرنسي عاش بين ١٨٦٠ – ١٩٤٩م) :" ليس هناك ملحدون بمعنى الكلمة " [١]

فيمكن لطفل صغير أن يجعل الملحد يشك في عقيدته – إن كانت له عقيـدة – بأن يقول له : ما يضرك أن تتبع دين الإسلام ، فإن لم تكن هناك آخرة لم تخسر شيئا ، وإن كانت ثمة آخرة نجوتَ بإتباعك للدين .

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تُبعث الأموات قلت: إليكما

إن صح قولكما فلستُ بخاسرٍ أو صح قولي فالخسارة عليكما

وبالطبع فإن موريس بلوندل يقصد بالملحدين المعنى المعروف من إنكار وجود الله تعالى ، وهو في هذا مصيب، فكل إنسان بداخله يقين بوجود الله تعالى ولو أظهر خلاف ذلك ، ولقد شاهدتُ شخصيا لقاءً مصورا مع أحد مدعي الإلحاد قـال في بدايته : " السلام عليكم " !!

وآخر ذهب يخبر أحدهم بإلحاده فأنكر عليه أن يكون ملحدا فقـال لـه :" والله العظيم أنا ملحد " !!

فهذا الإلحاد هو خروج عن الاعتقاد إلى لا شيء، أو الخروج عن الهُوية، أو مسخ وتشويه الفكر وترك الشك محل اليقين دون الاهتداء لشيء. وإن سموا ذلـك لا دينية أو لا ربوبية أو مانوية أو لا أدرية أو عبدة الشيطان أو أي شيء آخر.

---

(١) هذه المقولة اشتهرت عن بلوندل لكني لم أقف على صحة نسبتها إليـه ، وذكرتهـا لـصحتها وموافقتها للواقع وهذا ما يعنينا في هذا المقام .

أولا: اللادينية

اللادينية : هي عدم إيمان الإنسان بأي دين ، ورفض جميع الأديان على أنها كما يعتقد اللادينيون صنع ونتاج فكري بشري، و اللادينية هي عنوان عريض يندرج تحته كثير من التوجهات والقناعات الفكرية والفلسفية والعلمية، المرتبطة بالأسئلة الجوهرية عن الكون ومغزاه وعن السياسة والأخلاق، ولكن تبقى اللادينية مفهوما بسيطا يقتضي الاعتقاد أن أي الدين هو بشري الصنع.

ثانيا: اللاربوبية

تم استخدام كلمة اللاربوبية كترجمة عربية لكلمة (atheism) في الحملة العلنية لظهور اللاربوبيين (الملحدين) والتي دعا إليها ريتشارد دوكنز إلى جانب كلمة (إلحاد) بين قوسين ،كمحاولة لإشهار كلمة ثانية لا تحمل معنى سلبيا من حيث اللغة [١] وتعطي المعنى المطلوب المتمثل بعدم الاعتقاد بإله أو آلهة، لكن بالرغم من ذلك فكلمة "إلحاد" هي المستخدمة بصورة شائعة حتى من قبل الملحدين العرب.

ثالثا : المانوية

هي عقيدة من عقائد الفُرْس القديمة، تنسب إلى ماني بن فتك الذي ولد سنة ٢١٦ ميلادية في بابل ، وكان في الأصل مجوسيا عارفا ببعض الشرائع السماوية ومذاهب ومعتقدات عصره، وكان يقول بنبوة المسيح ولا يقول بنبوة موسى ، ثم حاول الجمع بين بعض الشرائع السماوية والمعتقدات الوضعية و إقامة صلة بين المسيحية و البوذية والزرادشتية، ولذلك فهو يعتبر نفسه ضمن الأنبياء وكلاً من بوذا وزرادشت ويسوع أسلافا له.

و أتباع المانوية هم معظم من أُطْلِق عليهم الزنادقة في صدر الإسلام ،وإن كان لفظ الزندقة في الإسلام شمل كل فكر فيه خروج عن توحيد الله تعالى، ومن

---

(١) هذا شبيه بما يفعله بعض العلمانيين هذه الأيام باستبدال العلمانية بالليبرالية وتفسيرها على أنها الحرية الشخصية للتدليس على الناس وإقناعهم بهذا الفكر الباطل المعادي للدين .

أمثلتهم: أحمد بن يحيى بن إسحق الراوندي المعروف بابن الراوندي ،و الشاعر العباسي المعروف أبي العلاء المعري صاحب رسالة الغفران ، والشاعر العباسي الحسن بن هانئ المعروف بأبي نُوَاس ...وغيرهم ، والله أعلم بخواتيمهم.

رابعا : اللاأدريه

هم الذين لا يتخذون موقفا معينا من وجود الله تعالى ، حيث يعتقدون أنها مسألة علمية لا يمكن إثباتها، ولا تحمل أهمية جوهرية بالنسبة للإنسان، فهم لا يؤمنون ولا يعتقدون بوجود إله لهذا الكون .

خامسا: عبدة الشيطان

هذه الحركة الشيطانية المعاصرة ظهرت بعد سنة ١٩٦٠ ، معتمدة على بعض الأعمال الأدبية التي تجسد الشيطان بشخصية البطل الذي لا يُهزم، مثل كتابات جورج برنارد شو ، ومارك توين اللذان شغلهما فكرة الرجل الخارق (سوبر مان) فمزجا بين صفات بشرية وأخرى خارقة لا يستطيع البشر فعلها، وهما في حقيقة الأمر لم يبدعا شيئا جديدا فهذا فكر متأصل وعقيدة راسخة في أعماق الفكر الغربي النصراني ، وهو اعتبار بعض الأشخاص أبناء الآلهة ولهم قدرات خارقة تفوق قدرات البشر، وتحارب قوى الشر وتساعد الضعفاء ، ولقد أدخلوا هذه الأفكار في كثير من أعمالهم الروائية والتصويرية (السينمائية) ولعل أشهرها روايات (هرقليز ، وهاري بوتر) .

ثم تبنى الشيطانيون هذه الفكرة وجعلوها من سمات شيطانهم مستغلين إلحاد هذين الكاتبين ليروجوا لأفكارهم الشيطانية.

وعقيدتهم التي يجتمعون حولها أنهم : لا يؤمنون بالله أو إبليس (الشيطان) أو حياة بعد الموت، بل يجب أن يستمتع الناس بحياتهم الحالية وأن يحيوها كاملة أو كما يحلو لهم.

وإمعانا في الجدية والتنظير قسموا أنفسهم إلى اتجاهين رئيسيين هما : الـــشيطانية الإيمانية !!! ، والشيطانية الإلحادية ، الشيطانية الإيمانية تبجـــل الـــشيطان كإلـــه خارق للطبيعة، على عكس الشيطانية الإلحادية التي ينظر أصحابها إلى أنفـــسهم على أنهم ملحدون، ولا يؤمنون بالشيطان المادي بل يؤمنون بالشيطان الرمـــزي الذي يرمز إلى بعض الخصال البشرية (الأهواء والغرائز)

ولقد تأسست في سان فرانسيسكو الأمريكية كنيسة عرفـــت باســـم كنيـــسة الشيطان ، وذلك في ٣٠ أبريل سنة ١٩٦٦، بواسطة الكاهن اليهودي الـــساحر أنطون لافي، الذي كان يعتبر الكاهن الأعلى لهم حتى هلاكه في ســـنة ١٩٩٧. وهي تعد أهم وأكبر مرجعية مؤسسية لهم ، كما أنه ألَّف لهم كتابـــا يعتبرونـــه مرجعهم الأهم وكتابهم المقدس وهو كتاب : الشيطان .

يدعوا عبدة الشيطان هؤلاء إلى : تمجيد القوة ، والاستمتاع بكل مـــا حرَّمتـــه الأديان و الاستعانة بالسحر و السحرة . و يرون أن الـــشيطان يكـــافئ أتباعـــه بالسرور و السعادة وامتلاك الدنيا بكل مسراتها، وبعد الموت يبعثـــون إلى الأرض ليحكموها و يتمتعوا بملذاتها .

واجتماعاتهم كلها لا تتم إلا بالموسيقى الصاخبة التي تسمى الميتـــال، والـــرقص الهستيري المختلط ، يصحب ذلك تعاطي المخدرات، وشرب أكواب الـــدماء ، والتعري واستباحة الأعراض علنا ، ويشترطون على أي فتاة تنضم لهم أن تفقـــد عذريتها ، وأن تُزال كل وسائل الاحترام الموجودة بينها وبين شباب المجموعة التي تنضم إليها، وهم يستترون وراء المصطلحات الغامضة فيطلقون على بعـــضهم : إيمو أو ميتال نسبة إلى موسيقاهم الصاخبة .

والخلاصة أن عبدة الشيطان، لا يؤمنون بألوهية الشيطان، بـــل يؤمنـــون بفكـــر الشيطان من استحلال المعصية والتشبع منها، وهذا ما يسمى **بالفجور**.

ورغم ذلك تبقى مسألة عالقة في غاية الأهمية لم تحسم بعد ، وهي التطبيق العملي على أرض الواقع والحياة العملية لفكرة الإلحاد، فالأديان تشجع الإنسان على إتباعها لما يجده فيها من التزام أخلاقي مريح، بل إنها أيضا تقدم له حلولا عقلية مريحة أيضا للقضايا الفلسفية الكبرى حول الوجود والغاية من الحياة، وقد يعتقد الملحد أنه يلتقي مع المؤمن بدين معين في فكرة احترام وجهة نظر المقابل وعدم استصغار أو تحقير أية فكرة، إذا كانت الفكرة مبعث طمأنينة لشخص ما وتجعله شخصا بناءً في المجتمع. وبعض الملحدين يزعمون أن لديهم فكر حضاري قائم على مبادئ حقوق الإنسان، بالرغم من أن بعضهم أيضا يبدي سلوكا متطرفا تجاه المؤمنين بأي دين وخصوصا الإسلام ، لكن ما هي عقيدة الملحد؟ وبماذا يؤمن ؟ وماذا يدعوه إلى الإلحاد ؟

الملحد البريطاني ريتشارد دوكيز يعتقد في كتابه :"وهم الإله" أن احتمال وجود الله هو احتمال ضئيل جدًا وأن الإيمان بوجود إله هو مجرد وهم، وهذه هي الفكرة التي بنى عليها كتابه كما هو واضح من عنوانه، ويعتبر أن الإنسان ليس بحاجة للدين كي يكون صالحًا وعلى خُلق ، ويتساءل : "هل كنتَ لتقتل أو تغتصب أو تسرق لو علمت أن الله غير موجود ؟ "

ويتفق دوكتز في كتابه مع مقولة روبرت بيرسيغ أنه "عندما يعاني شخص من وهم يسمى ذلك جنوناً، وعندما يعاني مجموعة أشخاص من وهم يسمى ذلك دينا ".!!

فالدين عنده وَهْمٌ اجتمع عليه الناس، ولا داعي لأن نعتقد شيئا ما دمنا نستمتع بالواقع ، وجمال الطبيعة بعيدا عن هذا الاعتقاد !! وهو يُدَنْدِن حول هذا المعني .

المطلب الثاني: أركان الإلحاد الأساسية

يُعلل بعض الملحدين رؤاهم بأسباب يعتقدونها فلسفية أو عقلية نابعة من التحليل المنطقي والاستنتاج العلمي ،وتعد هذه التعليلات الأركان الأساسية للفكر الإلحادي ؛ حيث يشير كثير منهم إلى :

* عدم وجود أي أدلة أو براهين موضوعية على وجود إله ، ويرون أن وجود إله متصف بصفات الكمال منذ الأزل هو أكثر صعوبة وأقل احتمالا من نشوء الكون والحياة لأنهما لا يتصفان بصفات الكمال، .بمعنى أن افتراض وجود إله حسب رأي الملحدين يستبدل معضلة وجود الكون .بمعضلة أكبر وهي كيفية وجود الإله الكامل منذ الأزل، وبالتالي لا بد أن التعقيد قد نشأ من حالة بسيطة، كتفسير تنوع وتعقيد الكائنات الحية كما تشرحه نظرية التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي.

* فكرة الشر أو الشيطان في النصوص الدينية: حيث يرى بعض الملحدين أن الجمع بين صفتي القدرة المطلقة والعلم المطلق يتعارض مع صفة العدل المطلق للإله وذلك لوجود الشر في العالم.

* عدم وجود دليل علمي على فرضية الخلق من العدم، حيث تقول إحدى النظريات حسب قانون بقاء المادة : إن المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم، بل يمكن فقط أن تتحول إلى طاقة بعلاقة تعبر عنها معادلة تكافؤ المادة والطاقة، والطاقة بدورها محفوظة بقانون بقاء الطاقة، .بمعنى أن المادة هي صورة من صور الطاقة، وهما لا يفنيان ولا يستحدثان من العدم.

هذه هي الأركان الأساسية للإلحاد المعاصر، وتتفرع عن هذه الأركان باقي الأفكار والتصورات والفلسفات، فالملحد المعاصر إما أنه ينكر وجود إله ؛ أو أنه لا يؤمن بوجود إله. وفي المبحث القادم سنعرض لسبل الوقاية والعلاج من هذا المرض العضال.

المبحث الرابع: مواجهـــة الإلحـــاد

المطلب الأول: الوقاية من الإلحاد

في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل ترى فيها جدعاء "[1].

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : "ومثل الفطرة مع الحق: مثل ضوء العين مع الشمس، وكل ذي عين لو ترك بغير حجاب لرأى الشمس، والاعتقادات الباطلة من تهوّد وتنصّر وتمجّس: مثل حجاب يحول بين البصر ورؤية الشمس، وكذلك أيضًا كل ذي حِسٍّ سليم يحب الحلو، إلاّ أنْ يعرض في الطبيعة فساد يحرفه حتى يجعل الحلو في فمه مُرًّا، ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكون حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل، فإنّ الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق: الذي هو الإسلام بحيث لو ترك من غير مغيّر لما كان إلاّ مسلمًا. وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع: هي فطرة الله التي فطر الناس عليها "[2]

والمقصود أن الإلحاد شيء طارئ على فطرة الإنسان كالمرض ، ومن ثم يمكن التحصن منها قبل الإصابة به، وكل أنواع الإلحاد يمكن التحصن منها ابتداءً بتربية النشء تربية إسلامية قِوَامها وعمودها الوسطية والاعتدال

والتربية في الإسلام هي بناء الإنسان في جميع مراحل حياته منذ لحظة ولادته حتى وفاته، إيمانًا وتوحيدا، عقيدة وعقلا وعلما وفكرًا، ليؤهله هذا كله إلى القيام بأعباء التكاليف الربانية، من عبادة الله تعالى كما أمر، وعمارة الأرض كما أراد.

---

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الجنائز باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه برقم[١٣٥٨]، ومسلم في كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم[٢٦٥٨].

(٢) ينظر:"مجموع الفتاوى" (٤/٢٤٧).

وأصل ذلك تربية النشء عقيدة وعبادة بعيدًا عن أفكار التطرف والانحراف. وحتى تتحقق هذه الغاية النبيلة، فلابد من تعهد النشء منذ الصغر في مراحل حياته المختلفة وأشكالها المتعددة، من خلال تكاتف الأسرة والمجتمع (١)

دور الأسرة

الأسرة من الأَسْر وهو الحبس والإمساك، ومنه الأسير وهو الحبيس، وأسرة الرجل: رهطه لأنه يتقوى بهم ويمتنع (٢).

وتَقُوم الأسرة بالدور الأهم في تربية النشء باعتبارها المؤسسة التربوية الأولى في حياة الإنسان. والتي يأخذ المولود منها أهم مقوماته السلوكية والأخلاقية، وعليها يقع العبء الأكبر في تكوين شخصيته المستقبلية، ولاشك أن صلاح هذا الأساس أو فساده ينعكس أثره على الناشئة.

لذا تعتبر الأسرة المسلمة أعظم مدرسة إيمانية وأقوى حصن تربوي منيع، يتم فيها إعداد الشباب –ذكورًا وإناثًا– على التحلي بالاستقامة والتَّقوى، والسلامة من الزيغ والانحراف، وانطلاقًا من مسئولية الزوجين المشتركة في تربية أولادهما على تقوى الله تعالى ووقايتهم من الضلال الفكري والانحراف السلوكي والفساد الأخلاقي، جاءت وصية النبي صلى الله عليه وسلم للوالدين بواجب تحمل المسؤولية الكاملة والرعاية الشاملة للأولاد، فقال صلى الله عليه وسلم :"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الرجل في بيته راعٍ ومسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع ومسئول عن رعيته، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"(٣)

---

(١) الصفحات التالية مستفادة من كتاب: بلوغ الآمال في تحقيق الوسطية والاعتدال، لمعالي الشيخ عبد الرحمن السديس حفظه الله.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة مادة (أسر).

(٣) أخرجه: مسلم في كتاب الإمارة، برقم(٤٨٢٨)، وأبو داود في كتاب الخراج، برقم(٢٩٣٠)، والترمذي في كتاب الجهاد، برقم(١٨٠٦).

فالأسرة هي صاحبة المسؤولية الكبرى في غرس العقيدة الصافية والفكر القويم والثقافة النافعة في نفوس النشء، وهي التي تعود الأولاد على أداء العبادات منذ الصغر، وتعمق فيهم الشعور بخشية الله تعالى ومراقبته

دور المجتمع:

للمجتمع أيضا دور مهم وفاعل في تربية الناشئة وتوجيه الأفراد من خلال قنواته المختلفة ووسائله المتعددة، والتي من أهمها:

١- المسجد:

المسجد -في الحقيقة- مركز تربوي يُرَبَّى فيه الناسُ على الفضيلة وحب العلم، وعلى الوعي الاجتماعي، ومعرفة حقوقهم وواجباهم في الدولة الإسلامية، لذا كان أول شيء فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة هو بناء المسجد. فالمسجد ليس مكاناً تقام فيه الصلاة فقط، لكنه مكان للعبادة والعلم والتربية والدعوة إلى الله تعالى، والتوجيه والإرشاد إلى الخير.

فله أهمية عظيمة في قلوب المسلمين، يجمعون فيه أمرهم، ويتشاورون فيه لتحقيق صلاحهم وفلاحهم، ويتعاونون فيه على البر والتقوى بينهم. وهو المدرسة الأولى التي تعنى بالإنسان المسلم سلوكًا وعقيدةً وروحًا، وفيه تربى الصحابة الكرام رضي الله عنهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لذا تجسدت فيهم الخصال الحميدة، والأعمال المجيدة، والسلوك الإسلامي الفريد، قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور: ٣٦-٣٧).

فالمسجد يسهم في بناء الشخصية المسلمة بناءً متكاملاً في إطار مجتمع إسلامي من خلال رسالته الدينية والتعليمية.

لذا واجب على المجتمع أن يُفَعِّل دور المسجد لأنه أعظم المؤثرات التربوية، ومن خلاله يتم نشر العلوم النافعة والأخلاق الحميدة، فيتم الأمن الفكري، ويستقيم السلوك وينتشر الفكر الوسطي المعتدل، الذي يدعو إلى التوازن والتآزر، بعيدًا عن الأهواء المنحرفة، والأفكار المشككة الهدامة.

٢- المؤسسات التعليمية:

إن الهدف من إنشاء المدارس والجامعات هو: بناء شخصية سوية جادة مستقيمة، تسير على ما ارتضاه المجتمع من دين وعادات وتقاليد وأعراف لا تخالف الشرع، وترمي إلى الذود عن البلد ومكتسباته، وحماية عقول ناشئته من أي تلوث فكري، وذلك من خلال العلم النافع.

فالعلم وحده هو الذي يبني شخصية الإنسان بناءً سويًا مستقيما، والعلم وحده هو الذي يحارب الأفكار الضالة والمنحرفة.

وهذا هو الدور الرئيس للمؤسسات التعليمية؛ بث العلوم النافعة الموافقة لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ونشر الآداب الفاضلة، وترسيخ الأسس الفكرية والعقدية، بما تحمله من معاني الاعتدال والوسطية. فهي تعد النموذج المصغر للمجتمع المتكامل.

وباعتبار هذه المؤسسات مؤسسات مجتمعية فإنه يقع على عاتقها مهمة المحافظة على أبنائها الطلاب من الانزلاق في متاهة الأفكار المنحرفة دينيًّا وأخلاقيًّا بالتحذير منها وبيان فسادها وسوء عاقبتها وبث الأفكار النافعة البناءة التي تُهذب السلوك وترسخ مفهوم الوسطية التي دعى إليها الإسلام. لذا فهي تقدم للطالب القدوة من خلال شخصية المعلم والذي يكمل دور الأب خارج نطاق الأسرة، وتقدم له المنهج العلمي السليم في الفكر وفي المعاملة والسلوك، كما تقدم له أسس ومفاهيم الدين من خلال الفهم الصحيح العملي الذي كان عليه هدي

النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم أجمعين من خلال ما يدرسه من مناهج ومقررات دراسية.

٣- وسائل الإعلام:

يشكل الإعلام ووسائله فضاءً ضخمًا تتدافع فيه الأفكار والثقافات المختلفة، مما أكسبه صفة العالَمية يتجاوز حدود المكان إلى شتى بقاع الأرض.

وفي عصر تتطور فيه وسائل التكنولوجيا وأدواتها بين غمضة عين وانتباهتها تتطور أيضًا وسائل الإعلام حتى ظهر ما يسمى بتكنولوجيا الإعلام، والمؤسسات الإعلامية، وتغلغل الإعلام بوسائله المختلفة في حياة الناس، فبين مقروء ومسموع ومرئي، كالقنوات الفضائية وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) والرسائل النصية ورسائل الوسائط يتقلب الناس وتتباين آراؤهم.

والإعلام - بهذا الانفتاح- سلاح ذو حدين، فهو يشكل فكر الملايين من البشر، وبالتالي يؤثر في آرائهم وعقائدهم، ومن ثم أفعالهم وتصرفاتهم. وأكثر الناس تأثرًا به هم الشباب والأطفال، وذلك لعدم استقلال أفكارهم وإدراك ما ترمي إليه بعض المذاهب والتوجهات.

فهذا السلاح ذو تأثير قوي وبعيد المدى، ويبرز دوره في كل مجالات الحياة، ولا يمكن الاستغناء عنه في أي نشاط إنساني. ومع هذه الأهمية نرى أن المسلمين لم يعطوا الإعلام الاهتمام الذي يجب أن يُعطى فكان بعيدا كل البعد عن آمال وتطلعات كثير من المسلمين .

إن الإعلام كلمة مشتقة من العلم وتعني إيصال المعلومات، وهي كلمة مستحدثة واصطلح الناس على إطلاقها على عملية: الإخبار عن الوقائع والأحداث، والإخبار في الشريعة الإسلامية له ضوابط وشروط صارمة ولا توجد هذه الشروط في أي شريعة أخرى أو عند أي أمة من الأمم. إن علمًا كاملاً في

الإسلام نشأ للتحقق من الأخبار والمرويات، وسمي بعلم الرجال: أي الرجال الذين ينقلون الأخبار والروايات. وكان المنطلق لتأسيس هذا العلم أمران:

الأول: العمل بقول الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦).

الثاني: الحفاظ على سنة النبي صلى الله عليه وسلم وما رواه عنه الصحابة رضي الله عنهم أن يدخل فيها ما ليس منها، فتشددوا في أحوال الرواة ومعرفة أسمائهم وأخبارهم وعدالتهم ورحلاتهم ومن لاقوه من الشيوخ ومن سمعوا منه ومن لم يسمعوا منه.... إلخ.

إن اهتمام الشريعة الإسلامية بعملية نقل الأخبار بلغ الذروة في التحقق من صحة هذه الأخبار؛ ولأن الأخبار تؤثر في الأفكار والأفعال.

لذا وجب أن تقوم أجهزة الإعلام بإعداد برامجها بدقة وأمانة، وإخلاص من المختصين المهرة بما يناسب شريعتنا الإسلامية، من خلال بث العقيدة الصحيحة والمنهج القويم، والعمل على تحقيق الأمن الفكري في البلاد الإسلامية، ونبذ العنف والتطرف والغلو، ومجانبة المشارب الحزبية المشبوهة، ودعوة العالم إلى منهج الاعتدال والتوسط، وحث الفرد والمجتمع على تقرير الحقوق وإقامة الحدود، والزجر عن الفواحش والكبائر وكل ما يدعو إلى الرذيلة والخنا، والحث على الفرائض والفضائل بما يحقق العبودية لله وينشر الأمن بين الناس.

لذا فإعلامنا لابد أن يكون إعلامًا هادفًا، يحارب الفضائيات المتهتكة التي تسعى لإغراء الأجيال بالباطل، والزج بهم في مهالك الفتنة والمنكر، بنشر الفكر الوسطي المعتدل، وإبراز محاسنه، والتحذير من التطرف والغلو، وبيان عواقبه الوخيمة، التي تعود بالضرر والفساد على الفرد والمجتمع.

فللأسرة والمجتمع دور في تكوين الفرز المسلم ،ولأن الإنسان كائن مركب من روح وجسد، فقد اعتنى الإسلام بهما معا فأولى الجسم اهتماما كبيرا وأمرنا

بالحفاظ على سلامته والاعتناء به لينعم الإنسان بصحته ويعيش صحيحا سليما، و أمرنا أيضا بالاهتمام بالجانب الروحي حتى يوازن الإنسان بين متطلباته الجسدية والعقلية. فالإنسان مخلوق وسط بين عالم الملائكة وعالم الحيوان. ومن ثم فإن تربية النشء لابد أن توازن بين هذين الجانبين، لأن الموازنة بينهما هي الوسطية المطلوبة في حد ذاتها.

أولاً: التربية الروحية

الروح: النَّفْسُ، والجمع أرواح، غير أن الروح مذكر والنفس مؤنثة، وتأويل الروح أنه ما به حياة النفس وهو الذي يعيش به الإنسان، وقيل: الروح إنما هو النَّفَس الذي يتنفسه الإنسان وهو جار في جميع الجسد(١)

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله عن الروح: " إنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد، وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم، فمادامت هذه الأعضاء صالِحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكا لهذه الأعضاء ولإفادتِها من هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح"(٢).

فتكون التربية الروحية هي: تعهد هذا الجسم النوراني العلوي والمحافظة على سلامته بالتمسك بأسس الإسلام وتعاليمه لأن واضع هذه الأسس هو رب العالمين جل وعلا وهو وحده الذي يعلم ماهية هذا الجسم: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء: ٨٥). وإذا صحت هذه التربية الروحية

---

(١) ينظر: لسان العرب مادة (روح).

(٢) ينظر: الروح (ص٢٧٦).

فإنّها تجعل الإنسان مرتبطا بربه، وعلى بصيرة من أمره، يسير على صراط الله المستقيم، ولا تصح هذه التربية إلا إذا ارتكزت الوسطية بعيدة عن الإفراط والتفريط ، فالإفراط والتفريط كلاهما مذموم، وخير الأمور أوساطها، ولله در القائل:

تسامح ولا تستوف حقك كله — وأبق فما استقصى قط كريم

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد — كلا طرفي قَصْدِ الأمور ذميم (1)

وأول درجات الوسطية التربية على الوسطية في العقيدة ، فالإيمان بالله تعالى يربي الروح ويَمْلَؤُه طمأنينة ويدفع عنه اليأس والقنوط، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨) فالإيمان بالله يُنَقي الروح من الشوائب، والميول المنحرفة، ويَرْقى بالشخصية المسلمة نحو الكمال والسمو في التصور والسلوك. فهو غذاء للروح ووقاية له من أمراض القلق والشك والأهواء والشهوات والشبهات والتيه والحيرة . والعقيدة الإسلامية هي الأساس الأول لتربية الروح على طاعة الله تعالى ، لأنها توافق الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

ففطرة الإنسان على الإيمان، فمن ألزمها غير الإيمان لا يجد في نفسه راحة ولا سكونا لأنه كلفها ضد طباعها

ومكلف الأشياء ضدَّ طباعها — متطلِّب في الماء جذوة نارِ

وإذا رجوت المستحيل فإنَّما — تبني الرَّجاء على شفير هارِ

(1) البيتان لأبي سليمن الخطابي. ينظر: كتاب العزلة (صـ ٩٨).

فإذا ما اطمأن الروح خف وحمل الأعضاء على العبادة ، فالعبادة من ثوابت التربية الروحية ، لأنها ليست حركات بدنية بل إيمان وتقوَى يحركان الأعضاء، والإيمان والتقوى محلهما القلب .

والعبادة : هي خضوع لله على وجه التعظيم، بفعل ما أمر واجتناب ما نهى ، وهي توثق الصلة الدائمة بين الإنسان وبين ربّه، لذلك شرعها الله تعالى على أوقات منها ما هو يومي ومنها ما هو أسبوعي ومنها ما هو سنوي ومنها ما فرضه مرة واحدة في الحياة .

فالصلاة شرعها الله تعالى وأمرنا بإقامتها، لأن من خصائصها أنّها: تَنْهى عن الفحشاء والمنكر وتطهر العبد من ذنوبه، فالصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " أرأيتم لو أن نَهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: كذلك الصلاة يَمحو الله بِها الخطايا"(١)

فالصلاة تأتي في مقدمة العبادات التي تصقل الروح وتُهذبها، لذا شرعها الله تعالى خمس مرات في اليوم والليلة دون النوافل. وليست الصلاة مجرد حركات يؤديها الإنسان ولكنها أعمال تملأ على الإنسان فكره وتزوده بالطاقة الروحية.

وكذلك الشأن في الزكاة فهي تربي الروح تربية عالية المستوى يتدرب الإنسان من خلالها على البذل والعطاء مما يُحب ليصل إلى البر ، قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران ٩٢)، وتطهره من داء الشحّ ومرض البخل ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة ١٠٣).

وكذلك الحال بالنسبة للصوم. فالصوم مدرسة كاملة لتربية الروح لأنه كف للإنسان عن شهواته كلها وكف سمعه وبصره ولسانه وسائر جوارحه عما

(١) أخرجه: البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، برقم(٥٠٥)، ومسلم في باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، برقم(١٥٥٤).

يغضب الله. كما هو كف للروح عن هموم الدنيا، ويشعر المسلم بإخوانه المسلمين ليحصل تقوى الله تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة ١٨٣).

و الحج كذلك. فإنه يربي الروح من لحظة التجرد من المخيط وينقيها من التعلق بالدنيا ويذكرها الخروج منها ولقاء الله تعالى(١)

إن الفرق بين الدين الحق والأديان الباطلة أوجزه الإمام ابن تيمية رحمه الله مفرقاً بذلك بين الإسلام وغيره حيث قال :" الإسلام يأتي بما تحار فيه العقول، لا ما تحيله). وهذه هي النقطة الجوهرية ، وهي حجر الزاوية، وقطب الرحى ، فالإسلام لا يعلم الناس المحالات العقلية أبداً ، بل أعظم عقائده فطرية يقينية تسلم بها جميع العقول على تفاوت إدراكاتها، فالعقائد في الإسلام واضحة سلسة يسلم بها العقل وتذعن لها النفس . وصدق الحبيب المصطفي صلى الله عليه وسلم حينما قال : "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه"

ولقد كتب الله على عباده التوحيد وقال في كتابه المجيد (قل هو الله أحد) وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها تعدل ثلث القرآن وحمل بعض أهل العلم هذا القول على أنها اشتملت على ثلث الإيمان الذي جاء به القرآن الكريم حيث جاء القرآن بتوحيد الربوبية وتوحيد الأُلوهية والإيمان بالرسل.

فتربية النشء على العقيدة الصافية و العبادة الصحيحة التي شرعها الله تعالى تربية لهم على منهج حياة متكامل جاء بِه الدين الإسلامي، لا غلو فيه ولا تطرف بل فيه محاربة للمفاهيم الباطلة، والأفكار المنحرفة، وتحقيق للتوازن بين متطلبات الفرد المادية والروحية بِما يتفق وفطرته السليمة التي فطره الله عليها، فيتحقق فيه معنى

(١) ينظر: الوسطية في التربية الإسلامية ص١١١ وما بعدها بتصرف.

قول الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص ٧٧)

ثانيًا: التربية الجسدية

يقال الجسد : لجسم الإنسان، ولا يقال لغير الإنسان جسد من خلق الأرض، الجسد: البدن، تقول: تجسد كما تقول في الجسم: تجسم وكل خلق لا يأكل ولا يشرب من نحو الملائكة والجن مما يعقل فهو جسد، وكان عجل بني إسرئيل لا يأكل ولا يشرب، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾ (طه ٨٨)، فالجسد التي لا تعقل ولا تميز، والجمع أجساد(١)

فالتربية الجسدية هي: الرعاية الشاملة للنمو الجسمي مع مراعاة دوافعه الفطرية والغريزية لتحقيق التوازن بين المتطلبات المختلفة للإنسان. فجسم الإنسان لا يمكن فصله عن الروح والعقل، لذلك فإن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه كُلٌّ لا يتجزأ ووحدة مترابطة متكاملة وتربيته السليمة تكون شاملة الروح والجسد معًا(٢)

إن سلامة الجسم وصحته من الأمور المهمة للإنسان، ولكي نربي النشء تربية جسدية سليمة، لابد وأن تكون هذه التربية قائمة على الأسس والمبادئ الإسلامية، هذه المبادئ التي تحقق للفرد التوازن المطلوب بين متطلباته المُتَعَدِّدة، لأن هذا يساعده على القيام بأعباء الحياة المختلفة، ويمكنه من أداء العبادة التي فرضها الله عليه، ولأن أداء هذه العبادات يحتاج إلى جهد لما بِها من مشقة، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف وفي كل خير"(٣)

---

(١) ينظر: لسان العرب، محيط المحيط مادة (جسد).

(٢) ينظر: الوسطية في التربية الإسلامية ص١٦٠.

(٣) أخرجه: مسلم في كتاب القدر، برقم(٢٦٦٤).

و للجسم أن يحصل على حاجاته ومتطلباته الأساسية من طعام وشراب ونظافة وراحة...إلخ عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص ٧٧) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : "إن لزوجك عليك حقًّا وإن لبدنك عليك حقًّا فأعطِ كل ذي حق حقّه"(١) وللجسم حقوق متعددة من أهمها:

١- حقه في الطعام والشراب. وقد أحل الله لنا أنواع الطعام والشراب المختلفة ولَم يحرم علينا إلا ما ضرره أكبر من نفعه، قال تعالى: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (الأنعام ١٤٥) وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة: ١٦٨). و لم يترك المجال مفتوحًا بل ضبطه بما يعود على الإنسان روحًا وجسدًا بالخير والصحة والفائدة، فقال صلى الله عليه وسلم : "بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه".

٢- ومنها حقه في الراحة والنوم: فالجسم السليم هو الذي يقضي حظه من هذه الشهوة -شهوة النوم- باعتدال، فلا ينام طول الوقت ولا يمنع نفسه النوم، وخير أوقاته الليل، لقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾ (النبأ ٩-١١) وهدي النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقوم من الليل يصلي وينام منه كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أما إني

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الأدب، باب حق الضيف، برقم(٥٧٨٣)، ومسلم في ،باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا...، برقم(٢٧٨٧).

أخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتـزوج النسـاء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[1].

٣- ومنها حقه في الزواج: فالزواج ضرورة فطرية واجتماعية وأخلاقية وبالزواج يتحقق السكن النفسي للإنسان، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم ٢١). والنبي صلى الله عليه وسلم حث الشباب على الزواج لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج، وقدم حلاً لمن لَم يستطع الزواج فعليه بالصوم فإنه له وجاء[2]

فالإسلام حفظ للجسم حقوقه الغرائزية وربطها بِهدف أسْمى من مجرد المتعة واللذة فوضع لكل شيء ضوابط وحدود بل إنه جعل للمسلم أجـرًا إن هـو أخلص النية لله تعالى في هذه الأعمال.

هـذا هو المنهج الإسلامي الذي تعامل مع الإنسان روحًا وجسدًا وحافظ على التوازن بينهما، وهو في تعامله مع غرائز الإنسان يختلف عن تعامل رهبان النصارى لهذه الغرائز حيث اعتبروا هذه الغرائز قذر ودنس يجب البعد عنه والتطهر منه، وكلما بعد عنها الإنسان ارتقت نفسه، وسمت روحه. فالتربية الجسمية عندهم تقوم على محاربة رغبات الجسد وإماتة غرائزه.

وعلى النقيض من هذا الحال جاء حال الماديين الذين تعاملوا مع الجسد على أنه لحم وعظم يعيش فقط من أجل الطعام والشراب والنكاح، دون نظر إلى سُمو روحه وإعمال عقله وفكره، فالإنسان عندهم يرجع إلى أصل حيواني فكان حالُهم كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ (محمد ١٢)

---

(١) أخرجه: البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، برقم(٥٠٦٣)، ومسلم في كتاب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، برقم(١٤٠١).

(٢) أخرجه: البخاري في كتاب النكاح، برقم(٥٠٦٥).

و الإسلام بتعاليمه وسطًا بين المادية والرهبانية. أحل الله لنا مُتَع الدنيا دون إسراف أو تفريط، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف ٣٢) لذا فمن المهم جدا تعهد الناشئة في التربية، وإتباع تعاليم الدين الحنيف في الموازنة بين متطلبات الروح والجسد .

ثالثا : التربية الفكرية:

إن قضية الوسطية في الفكر من أهم القضايا التي ينبغي العناية بها، لاسيما في أوقات الفتن، إذ بها تتفاوت مراتب الخلق في إصابة الحق، وسبق تعريف الفكر : أنه تردد القلب بين شيئين، والفكر القويم المعتدل تحوز به الأمم السيادة وتنطلق إلى آفاق الريادة، وبانحراف الفكر عن سنن الجادة والاعتدال، تكون الكارثة والمهلكة ،سواء في ذلك الأفراد أو المجتمعات.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله : "صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاءً بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم، الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم، الذي أُمِرْنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة. وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد"[1]

والتربية الفكرية القويمة لا بد لها من مبادئ وأسس من أهمها:

---

(1) ينظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (٨٧/١).

١- تقديم الوحي على العقل:

فالعقل تابع للشرع، وليس في هذا تقليلاً من شأنه أو هدرًا لمكانته، بل هذا من تمامه وشرف غايته.

وأصحاب الأفكار المنحرفة والمتطرفة، إنما يعملون عقولهم بعيدًا عن نور الوحي، وهدي الكتاب والسنة، بل إن بعضهم جعله مقدمًا عليهما، حاكمًا على نصوصهما، فلا يقبل منهما إلا ما أيده ووافقه.

قال الإمام الشاطبي رحمه الله :" إن المصالح التي تقوم بها أحوال العبد لا يعرفها حق معرفتها إلا خالقها وواضعها، وليس للعبد بها علم إلا من بعض الوجوه، والذي يخفي عليه منها أكثر من الذي يبدو له؛ وكم من مدبر أمرًا لا يتم له على كماله أصلاً، ولا يجني منه ثمرة أصلاً، فإذا كان كذلك فالرجوع إلى الوجه الذي وضعه الشارع رجوع إلى وجه حصول المصلحة " [1]

وقال أيضا :" "الأدلة العقلية إذا استعملت في هذا العلم (يقصد العلم الشرعي) فإنما تستعمل مُركبة على الأدلة السمعية ، أو مُعينة في طريقها ، أو محققة لمناطها، أو ما أشبه ذلك، لا مستقلة بالدلالة ، لأن النظر فيها نظر في أمر شرعي ، والعقل ليس بشارع"

و قد بسط الإمام ابن تيمية رحمه الله الكلام على هذه المسألة بكلام نفيس و رائع في كتابه الماتع (درء تعارض النقل و العقل)

والواقع أنه لا تعارض بينهما، فصحيح المنقول لا يمكن أن يعارض صريح المعقول، كما قال الإمام ابن تيمية رحمه الله :"ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها

---

(1) ينظر: الموافقات (١/٣٥)

الموافق للشرع، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يقال: إنه يخالفه: إما حديث موضوع، أو دلالة ضعيفة، فلا يصح أن يكون دليلاً لتجرده من معارضة العقل الصريح"[1]

كما أن الله –تبارك وتعالى– أمرنا في كثير من آياته بالتفكر والتدبر، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية ١٧–٢٠)، وقال سبحانه:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٦٤).

إن استحضار هذه المعاني والآيات، وبثها في نفوس النشء كفيل بتوجيه أفكارهم الوجهة الصحيحة، فيصبحون من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، بإعمال العقول تحت مظلة الوحي دون تقديمه عليه، فالوحي يحمي العقل من الشطط والغلو والانفلات عن حدوده.

٢– غرس مكانة العلماء في نفوس الناشئة:

العلماء هم أئمة الأنام وزوامل الإسلام، الذين حفظوا على الأمة معاقد الدين ومعاقله، وحموا من التغيير والتكدير موارده ومناهله، الذين قال فيهم الإمام أحمد رحمه الله :"يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحيُون بكتاب الله الموتى، ويُبصِّرُون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه"[2]

([1]) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (١٤٧/١).

([2]) ينظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (٩/١).

قال ميمون بن مهران رحمه الله :"العلماء هم ضالتي في كل بلد، وهم بغيتي إذا لم أجدهم، وجدت صلاح قلبي في مجالسة العلماء"

وقال عنهم الإمام ابن القيم رحمه الله : "هم في الأرض بمنْزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلام، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء ٥٩).

فطاعة العلماء واجبة لأنهم أعلم الأمة بالأحكام ومقاصدها، ومآلات الأفعال ومسالكها، ولأنهم يطبقون شرع الله تعالى كما أراد ، مترسمين منهج النبي صلى الله عليه وسلم في عبادته ومعاملاته، هذا المنهج الرباني، والهدى النبوي الذي هو خير الهدى، كما قال صلى الله عليه وسلم : خير الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة"[1]

فأساس الوسطية في الفكر –والتي يجب غرسها في النشء- تقديم الوحي (الكتاب والسنة)، وإتباع أهل العلم، فمن تمسك بها أفلح ونجا، ومن حاد عنهما هوى وضل، وانحرف عن الحق وزل، وهما أصل صحة الفهم وحسن القصد.

وهو الهدف السامي الذي ينشده الجميع في الأجيال الناشئة، ويعمل على ذلك دون تهاون في هذه القيم الإسلامية، والأخلاق القرآنية.

فرب صغير قوم علموه سما وحمى المسومة العرابا
وكان لقومه نفعًا وفخرا ولو تركوه كان أذى وعابا
فعلِّم ما استطعت لعل جيلا سيأتي يحدث العجب العجابا

---

(1) أخرجه: مسلم في صحيحه كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (١١/٣).

٣- ترغيبهم في العلم الشرعي:

إنّ من أهمّ روافد الأمن الفكري التزود بالعلوم الشرعيَّة، التي ترشد إلى طريق الهداية والصلاح الذي جاء به القرآن الكريم، وهو الحق المبين، الذي لا يأتيه الباطل، وتدعوا إلى الوعي الفكري الناضج، وسلوك الطريق القويم، وأداء الطاعات، وفعل الخيرات، واجتناب المحرمات، ويحقق العلم الشرعي فضيلة الجمع بين التقوى والعلم، ليؤدي أغراضه التربوية في بناء المجتمع الآمن، والاستقامة السلوكية.

قال الله تعالى:﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الحج ٥٤).

لذا كان السلف يحرصون على تعليم أبنائهم العلم الشرعي صغارا وكان الحسن البصري يقول:" قدموا إلينا أحداثكم فإنهم أفرغ قلوباً وأحفظ لما سمعوا". وفي المثل : التعلم في الصغر كالنقش على لحجر.

ولله در القائل :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

فالارتباط وثيق بين العلم وتحقيق الاعتدال الفكري، لدى أفراد المجتمع المتأهلين بالعلم الشرعي، ومن القضايا المنهجية المهمّة في هذا المجال ضرورة أخذ العلم من العلماء الربانيين لأنهم صمام الأمن الفكري، فبحسن توجيههم وبيانهم يتحقق الفهم الصحيح للنصوص وقواعد الاستدلال، لاسيما في النوازل والمستجدات، قال تعالى:﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء ٨٣)، وهنا تتبين خطورة التعالم والمتعالمين، والقائلين على الله بغير علم، والخائضين في أمور الشريعة إفتاءً وتحليلاً وتحريما، وهم ليسوا منها في ورد ولا صدر، مما كان سبباً في الانحراف الفكري، وحلول الفوضى الفكرية، لدى كثير من الناس .

٤- إشراكهم في الأعمال النافعة دنيويا وأخرويا

إن استثمار أوقات الشباب وملء فراغهم بالبرامج النافعة التي تعود عليهم وعلى مجتمعهم بالنفع في أمور دينهم ودنياهم، وتحذيرهم من مجالسة أصحاب الأفكار المنحرفة، أو السفر إلى بقاع موبوءة، ضرورة مُلحَّة.

كما يتحتم على أولياء أمورهم متابعة تحركاهم ومراقبة تصرفاهم، وما يطرأ عليها من جنوح أو تغيير بإيجاد آلية للحوار البنّاء، وفقًا للضوابط الشرعية والإمكانات الاجتماعية والأسرية، فالفراغ داء قاتل وهو للحيرة والضياع مَدَبّ، والانحدار في الجريمة والانحراف مَهَبّ، فلا يكاد الشاب يتعلق بما يظنه حقيقة حتى تمتبله أيادي الفكر المتطرف، أو قرناء السوء والمنكر والدمار.

إنّ للعمل الصالح المتمثّل في القيام بالعبادات على علم صحيح شرعي آثاراً كبيرة في حياة المسلم، منها: انشراح الصدر، وراحة البال، وسعة الرزق، وسلامة الإنسان وارتياحه، واطمئنانه، وشعوره بالأمان.

وقد جاء في القرآن آيات كثيرة، وفي السنة النبوية أحاديث عديدة، تدلّ على تلك الآثار، وعلى أن تقوى الله تعالى والأعمال الصالحة يترتب عليها سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، ويأمن بإذن الله من الانحراف الفكري.

قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ (الأحزاب ٧٠)، وهذه عبادة، ثم ذكر الأثر المترتب على ذلك بقوله:﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (الأحزاب ٧١).

فإصلاح الأعمال الدنيوية، ومغفرة الذنوب في الآخرة من الآثار المترتبة على العبادة الصحيحة، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة، على ذكر آثار تترتب على العبادة في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا إصلاح الأعمال والتوفيق والسداد، وأن يسير الإنسان إلى الله تعالى على بصيرة، وفي الآخرة مغفرة الذنوب، وتكفير السيئات.

هذا فيما بين العبد وبين ربّه، أمّا مجال العمل الخيري من رعاية الأيتـام، والقيـام على المساكين، ومساعدة المرضى، ونصح المساجين، وإعانة المحتاج، والأرامـل، ودور العجزة، وما إلى ذلك من وجوه البر التي تشعر النفس بالمشاركة فيما يعود على الناس بالسعادة، إضَافة إلى أنّها من مصادر سعادة العبد وطمأنينته وراحـة باله واتّزَانه، فهي كذلك من أهم الأسباب التي تبث الألفة وتنشر المحبة، وتُقـوي اللُّحْمَة بين أفراد المجتمع الواحد.

فالطاعات والأعمال الصالحة سبب لتحقيق الاستقرار النفسي والأمن الفكري، و المعاصي والمحرمات سبب في غرق سفينة المجتمع، فالفكر المنحـرف معـصية لله، وللمعاصي شؤم خطير على المجتمعات، تجعلها تخرج عن منهجها القويم .

٥- تربيتهم على ضرورة الرجوع إلى العلماء وولاة الأمر عند النوازل:

وهذا هو ديدن المسلم ودينه الذي أمره به ربه سبحانه قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ منْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء ٥٩).

وقال تعالى:﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ منَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْف أَذَاعُوا بِهِ وَلَـوْ رَدُّوهُ إِلَـى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ منْهُمْ لَعَلمَهُ الَّذينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ منْهُمْ﴾ (النساء ٨٣).

إنّ طاعة ولاة الأمر من العلماء والأمراء، والرجوع إليهم في الملمات والنـوازل، والأخذ عنهم، والاستضاءة بعلمهم وفهمهم واستنباطاهم ونظراهم: هو الـسبيل لتحقيق أمن الفرد و الجماعة ، وتحقيق وحدة الأمة واستقرار الدولـة وتفرغهـا لأداء واجباها في الإعمار والبناء والنماء والتصدي لكيد الأعداء.

ومن أجل هذه الغايات السامية أوصى رسول صلى الله عليـه وسـلم جماعـة المسلمين بطاعة أمرائهم وولاة الأمر منهم في جميع الظروف والأحوال، فعن أنس

بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة"[1]

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى:﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ (النساء ٨٣).

"هذا تأديب من الله لعباده، عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم، إذا جاءهم أمر من الأمور المهمّة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى أولي الأمر منهم أهل الرأي والعلم النصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدّها، ولهذا قال:﴿ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء ٨٣)، أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة"[2]

٦- ترسيخ ثقافة الحوار

الحوار مناقشة بين طرفين أو أطراف؛ بقصد تصحيح المفاهيم، وإظهار الحجة، وإثبات الحق، وهو بهذا المعنى يعد منهجًا شرعيًّا خالصًا، وسلوكًا أخلاقيًّا هادفًا، فطر عليه الإنسان، ودلت عليه آيات القرآن، واتبعه النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته وبيان رسالته.

والحوار مع الناشئ سبر لأغوار شخصيته، وكشف عن مشكلاته النفسية والعقلية، ومن ثم المساعدة في العلاج المبكر وربما الوقاية مما هو أخطر.

وترسيخ هذه الثقافة عنده تنمي عقله، وتوسع مداركه، وتساعده في الكشف عن حقائق الأمور وبواطنها. فلا يكون إمعة؛ إن أحسن الناس أحسن وإن أساءوا أساء.

([1]) أخرجه: البخاري في كتاب الآذان، برقم(٦٩٨)، وابن ماجه في كتاب الجهاد برقم(٢٩٧٠).

([2]) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٩٠).

والحوار الأسري يشمل النصح والتوجيه، وتنمية الأخلاق الفاضلة في نفوس النشء، وقد سجل القرآن الكريم بعض هذه الحوارات الرائعة منها حوار نبي الله إبرهيم عليه السلام مع ولده إسمعيل عليه السلام لما أُمر بذبحه، وحوار نبي الله يعقوب عليه السلام مع ولده يوسف عليه السلام لما رأى الرؤيا، وكما فعل العبد الصالح لقمان مع ولده وهو يَعِظه ، وفي سنة نبينا صلى الله عليه وسلم نماذج حوارية رائقة كحواره صلى الله عليه وسلم مع من جاءه يطلب الرخصة في الزنا[1]، وحواره مع من تكلم في الصلاة [2]...وغيرها كثير وكثير .

فمن خلال الحوار يتم غرس العقيدة و المفاهيم الصحيحة للإسلام؛ كالإيمان بالله، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وبث الثقة بالنفس وحسن الخلق والوسطية والاعتدال في الفكر والأعمال. وكلها عقائد ومفاهيم يرسخها منهج الحوار التربوي البناء بالمناصحة والمناقشة العلمية الهادئة، والفكر القويم المنضبط بآداب الإسلام، فينشأ الناشئ قويم الفكر معتدل السلوك، لا يتأثر بأفكار التطرف و الإلحاد، ولا يركن إلى الإهمال والتقصير، وإنما يأخذ من الأمور أوساطها دون إفراط أو تفريط، لأنه تعلم أن يكون وسوطًا، لا ذاهبًا شطوطًا، ولا هابطًا هبوطًا. شعاره في الحياة:

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعبا [3]

فالأمر كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله : "الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط عليه بناء مصالح الدنيا والآخرة" [4].

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٥٦)رقم (٢٢٢٦٥)

(2) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة باب : تحريم الكلام في الصلاة رقم (١٢٢٧)

(3) ينظر: البيان والتبيين (١/١٣٩).

(4) ينظر: الفوائد (١/١٤١).

٧- اختيار الصحبة الصالحة

الصحبة من المصاحبة وتعني المعاشرة والصداقة، وهي من السنن الاجتماعية، وطبائع النفس البشرية. فالإنسان اجتماعي بطبعه، يخالط الناس ويعاشرهم، ويتعرف إليهم ويتعايش معهم، يؤثر فيهم، ويتأثر بهم. فإن كانوا على خير كان مثلهم، وإن كانوا على شر فقد عَمَّهُ وعمهم. وكما قيل: الطيور على أشكالها تقع. وقيل أيضًا:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي[١]

وخير من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : "الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل"[٢]

فالصحبة أمر مهم لا يمكن التساهل فيه أو التغافل عنه، وللأسرة دور عظيم في اختيار الصحبة الصالِحة لناشئيها، فالأولى بهم والأجدى له ولهم بَذل الجهد لمساعدته في اختيار الصاحب والصديق الذي يساعده على طاعة الله تعالى وإتباع أوامره، والتمسك بالمنهج الإسلامي المعتدل، والسلوك الوسطي المتوازن، لأنه سيتأثر به ويقلده. وكما قال الإمام الأوزاعي رحمه الله تعالى:" الصاحب للصاحب كالرقعة للثوب إذا لم تكن مثله شانته"[٣]

والناشئ إذا وجد معينًا له في الصالحات، إن كسل زاد همته، وقَوَّى عزيمته على فعل الخيرات، وترك المنكرات؛ نشأ محبًّا للخير مفتاحًا له، مغلاقًا للشر معرضًا عنه، فمن شبَّ على شيء شاب عليه.

---

(١) ينظر: ديوان طرفة بن العبد (٢٠/١).

(٢) أخرجه: أحمد في مسنده برقم(٨٠١٥)، و أبو داود في كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يُجالَس، برقم(٤٨٣٥)، والترمذي في كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب٤٥، برقم(٢٣٧٨)، وحسنه الألباني في الصحيحة برقم(٩٢٧).

(٣) ينظر: الصداقة والصديق (١٥/١).

وإنَّ من أَدَّبْــتَهُ فِي الصِّبَــا | كالعود يُسْقَى الماءَ في غَرْسِهِ
حتى تــراه مورقًا ناضــــرًا | بعد الذي أبصرت من يبسه
والشيـــخ لا يترك أخلاقــه | حتى يواري في الثرى رمسه
إذا ارعوى عـــاد إلى جهله | كذي الضنا عاد إلى نكسه[1]

هذه أهم مبادئ وأسس التربية الفكرية القويمة البعيدة عن الشك الهدام و التطرف الفكري وفكر التطرف، والوحي الإلهي لا يلغي دور العقل الإنساني، وإنما ترك له مجالات عديدة يثبت فيها ذاته ويبرز قدراته.

إننا في حاجة ماسة لتفعيل هذه الأسس البناءة للعقل الإيجابي الوسط بين الفكــر المادي الحِسِّي والفكر الروحي الوجداني.

إن الفكر المادي الغربي قائم على نظرية المادية المعتمــدة علــى وســائل الإدراك الحسية، ويعتني بالناحية التطبيقية التجريبية، ملغيًا جانب العقل وجانــب الــروح والوجدان.

وهناك مدرسة أخرى تمجد العقل وتقدسه، وجعلته حَكمًا علــى كــل شــيء، ووصلت به إلى درجة تكذيب الضرورات الحسية، بحجة أنّ الحس يُخْطِئُ ويهم.

والفكر الروحي الهندوسي قائم على الرياضات الروحية الوجدانية، حتى تسمو – كما يقولون– أنفسهم عن الحياة الحيوانية الغريزية، وهــم يمجــدون الطبيعــة ويعيشون في الأماكن المهجورة والأديرة والمعابد البعيدة وفي الجبال.

لكن الفكر الإسلامي يدعو إلى إعمال العقل والحس والروح معًا، كل ذلــك في حدود الشرع وليس بإطلاق، فالشرع حكم على الجميع فيما يتوهم فيه التعارض ولا تعارض في واقع الأمر، كما أنه وازن بين المادية الحسية والحياة الروحية.

([1]) ينظر: جامع بيان العلم وفضله (٨٦/١).

ومن ثم لا يمكن لأي إنسان أن يضل أو يزيغ، لو أعمل عقله في حدود ما أمـــره الله –تبارك وتعالى.

ولله در الإمام الشافعي رحمه الله حيث قال:"إن للعقل حد ينتهي إليه، كمـــا أن للبصر حدًا ينتهي إليه"[1]

فعلى العقول أن لا تستقل بإدراك مصالحها دون الوحي، لأن الأفكار المنحرفة إنما تنشأ من إعمال العقل بعيدًا عن الشرع.

---

(1) أخرجه: ابن أبي حاتم في آداب الشافعي ومناقبه (ص٢٧١).

المطلب الثاني: الرد على الملحدين [1]

بعد بيان أنواع الإلحاد وتفنيدها ، ومعرفة ظروف نشأتها وتطورها وأمثلتها وعقائد أصحابها، أصبح من السهل اليسير دحض حججها العليلة، وشكوكها الخَجلة الرذيلة، وهذا هو الهدف الأسمى من شرح الجذور ومعرفة البواطن والأصول، ومناقشة الملحد أمر سهل على من فهم الجذور ، وسبر الأغوار، ويمكن وضع خُطة عامة للحوار مع الملحدين في رءوس موضوعات؛ ثم دعم ذلك بنموذج من مناظرة مع أحدهم والرد على شبهاتهم التي يروجون لها:

أولا: تصنيف الملحد من خلال معرفة شخصيته وسبب إلحاده، وستفاجأ أن معظم الملحدين المعاصرين ألحدوا تقليدا وجهلا ، تقليدا لمن يعتقدونهم علماء ومفكرين وثوار ، أمثال : ماركس و جيفارا وتشافيز وغيرهم ، وجهلا بحقيقة دينهم وتاريخهم. وهذا الصنف يتراجع بالحقائق ويُفَاجأ عندما تُكْشف له، ولكن عرض الحقائق يحتاج لحكمة وبصيرة ، وعدم الطعن ابتداءً فيمن يعتقدوهم ويُجلوهم ويُكبِروهم ، وبيان أن العلم ليس حِكْرا لأمة أو جماعة مع ذكر أمثلة من علمائنا (في العلوم الدنيوية) وأن الحضارة الأوربية الحديثة قامت من أساسها على علوم المسلمين والعرب في كل مجالاتها العلمية : في الطب والفيزياء والكيمياء والفلك والحساب والأرقام ...إلخ ، ثم نؤيد هذا كله بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الداعية للعلم والتفكر في خلق السماوات والأرض، ساعتها سيتحول انبهاره بحضارة الغرب إلى حب استطلاع ومعرفة عظمة الدين ، وهنا

---

[1] من الكتب المفيدة في هذا الموضوع ، درء تعارض العقل والنقل للإمام ابن تيمية ، وشفاء العليل، ومفتاح دار السعادة لابن القيم ،وميليشيا الإلحاد لعبد الله بن صالح العجيري، والفيزياء ووجود الخالق لجعفر شيخ إدريس ،و آلة الموحدين لكشف خرافات الطبيعيين لأبي الفداء ابن مسعود ، ومنهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية لسعود العريفي،وقضية الخير والشر لدى مفكري الإسلام لمحمد السيد الجليند.

نذكره ببعض الآيات التي تناولت أوجه الإعجاز العلمي مثل قول الله تعـالى :
﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس ٣٧-٤٠)

ثانيا: إذا كان سبب إلحاده العقل ، ولا يؤمن إلا بما يصدقه عقله أو يثبته العلم ، فعلاجه التشكيك في بعض قدرات العقل ، والتشكيك في بعض نتائج العلم، وبيان أن الصُّدْفة من أهم طرائق العلم ، وكثير من النظريات تم معرفتها عن طريق الصدفة (وهذه وحدها تهدم اعتماد الملحد على العلم) ثم نبين له مكانة العلم في الإسلام قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة ١١).

فأهل العلم من المؤمنين أعلى درجات من المؤمنين فقط وليسوا علماء.

والعلم هو الشيء الوحيد الذي أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يطلب منه الزيادة فقال سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طـه ١١٤)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير"[1].

ثالثا : إذا كان سبب إلحاده الفكر والفلسفة والشك المطلق في كل شيء ، فمثل هذا لا تُسَلِّم له بمقدماته ولا تتفق معه فيها ، واضرب له مثلا بأبي حامد الغزالي وطريقته في الشك البَنَّاء ، وأن ديكارت استفاد منه في هذه الطريقة واستطاع أن يثبت وجود الله تعالى بهذه الطريقة .

(1) أخرجه: الترمذي، رقم(٢٨٢٥) وقال: حسن صحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته رقم(١٨٣٤)، الناشر المكتب الإسلامي.

رابعا : إذا كان سبب إلحاده إلحاد إشراك ، فالقرآن الكريم مليء بمناقشاتهم على ألسنة الرسل والأنبياء ، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم مليئة بمناظراته ومحاوراته كفار قريش ، بما يهدم أي فكرة لعبادة أحد من دون الله تعالى .

خامسا : إذا كان سبب إلحاده الكبر والغرور ، فهذا يحتاج لعلاج الكبر والغرور، وعلاج الكبر يكون ببيان صِغَر الإنسان بالنسبة للكون، وأنه ليس شيئا في هذا العالم، فما يكون حجمه مع حجم السماء والأرض؟ ، وما هي قوته بالنسبة للجبال الرواسي ؟، وماذا كان أوله ؟ ثم ماذا تكون نهايته ؟ ، وماذا يكون في حياته ؟ تُقلقه نملة !!، وتقض مضجعه ناموسة ، واضرب له مثلا بنمروذ وفرعون وقرون وقوم عاد، أين هم، وماذا بقي منهم ؟

ثم حدثه عن عظمة الكون والأجرام السماوية، وأن الحياة لا تقف عند شخص حتى لو كان نبيا، فأين هم الأنبياء الآن ؟ ، أين قوم عاد وثمود ؟ أين الذين كانوا ينحتون من الجبال بيوتا؟...إلخ

سادسا : لا تأخذك الحمية وتقع في (فخ) الدفاع عن الدين مع الملحد ، وبادره بالأسئلة المتوالية عن عقيدته ؟ وأصول مذهبه ؟ واجعله يشرح لك ذلك باستفاضة ..!! ستجد أنه لن يتكلم أكثر من دقائق معدودة إن كان خبيرا ضليعا متضلعا ، ثم يشترك مع باقي الملحدين في الهجوم على الدين والتشكيك فيه ، فهم لا يجيدون البناء ولا يحسنون إلا الهدم والتشكيك. وفكرهم بناء لا أصول له ولا قواعد ولا أساس، يقولون في الإسلام ما يقولون ولا يستطيعون شرح بدائلهم التي تجعلنا نؤمن بما يؤمنون . ولو أرادوا بسط مبادئهم لوجدتها قائمة على رفض ما في الإسلام أو أي دين من أصول ومسلمات .

وحتى يريحون أنفسهم أصبحوا يقولون مؤخرا، لا حاجة للأديان ولنخرج منها إلي لا شيء ..!! إلي لا دين ، ولا عقيدة ، ولا إيمان !!

سابعا : ليس لأحد أن يتصدى لملحد أو يناقشه إلا أن يكون على علم ومعرفة بالأدلة ومواضع الاستشهاد من الكتاب والسنة وكلام أهل العلم الشرعي والدنيوي ، فإن لم يكن كذلك فليدلّه على عالم أو يدل عالم عليه ، لأنه ربما فُتن بكلام الملحد العقلي فتأتي الطَّوَامّ من قَبْل الفِطَام .

ثامنا: الرد على الملحدين يقتضي المعرفة التامة بأركان الإلحاد، ثم بالتصورات الناتجة عن هذه الأركان التي تتمثل في عقائد الملحدين، ومن ثم لا يصلح في مناقشة الملحدين الاستشهاد بآيات القرآن لأنه أصلا لا يعترف بقدسيته خاصة إذا كان من الملحدين العقليين ، فهذا يحتاج إلى أدلة مادية محسوسة .

وقد يحتاج هذا النوع من الملحدين إلى المنهج السوفسطائي في الجدل ؛ الذي يبدأ بالتشكيك في المسلمات لديه بأدلة عقلية مجردة ، ثم وضع أسس أخرى غير التي يؤمن بها وإقناعه بها والبناء عليها ..وهكذا

تاسعا: إذا وجدت الملحد صادقا في طلب المعرفة والوصول إلى حقيقة، فليس أبلغ من تكرار آيات القرآن الكريم على مسامعه؛ خاصة تلك الآيات التي تتكلم عن خلق الإنسان وخلق الشمس والقمر والليل والنهار ثم الدندنة حول معانيها ومراميها. فإنها نزلت لهذا الغرض في الرد على مشركي مكة.

عاشرا:ليكن شعارك في مناظرة الملحدين قول النبي صلى الله عليه وسلم:" لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا" (متفق عليه) ، فلا تغتر بمعلوماتك أو مهارتك بل اطلب التوفيق من الله تعالى ، وليكن هدفك إظهار الحق ودحر الباطل دون الإساءة للآخرين.

من المناظرات المعروفة في هذا الباب **مناظرة القاسم بن إبرهيم الرسي[1] **مع أحدهم** .

فقد كان بمصر رجل من الملحدين كان يحضر مجالس فقهائها، و متكلميها فيسألهم عن مسائل الملحدين ،وكان بعضهم يجيب عنها جوابا ركيكا وبعضهم يزجره ويشتمه فبلغ خبره القاسم بن إبرهيم الرسي وكان متخفيا في بعض البيوت فبعث صاحب مترله ليحضره عنده، فأحضره فلما دخل عليه قال له القاسم : إنه بلغني أنك تعرضت لنا وسألت أهل نحلتنا عن مسائلك تريد أن تصيد أغمارهم بحبائلك حين رأيت ضعف علمائهم عن القيام بحجج الله والذب عن دينه. ونطقت على لسان شيطان رجيم لعنه الله وقال: ﴿ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (النساء ١١٨)

فقال الملحد : أما إذ عِبْتَ أولئك وعيرهم بالجهل فإني سائلك وممتحنك فإن أنت أجبت وإلا فأنت إذا مثلهم

قال القاسم : قل ما بدا لك وأحسن الاستماع ، وعليك بالنَّصَفَة ، وإياك والظلم ومكابرة العيان ودفع الضرورات والمعقولات ، أُجِبك عنه وبالله أستعين وعليه أتوكل وهو حسبي وكفي ونعم الوكيل.

قال الملحد: خبرني ما الدلالة على أنه الصانع؟

قال القاسم :الدلالة على ذلك قوله في كتابه :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ

---

(١) هو: القاسم بن إبرهيم بن إسمعيل العلوي المعروف بالرسي ولد سنة ١٦٩ هـ عاش في عهد الدولة العباسية وعاصر الخلفاء هرون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم وتوفي سنة ٢٤٦ هـ وهذه المناظرة من كتابه : الدليل الكبير في الرد على الزنادقة والملحدين تحقيق إمام حنفي عبد الله ، نشر دار الآفاق العربية القاهرة الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠هـ، الموافق ٢٠٠٠م

طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لّاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾

(الحج ٥/٧) ، ووجه الدلالة في هذه الآية فهو : كون الإنسان ترابا ثم نطفة ثم علقة لا تخلو هذه الأحوال من خلتين :

إما أن تكون محدثة أو قديمة، فإن كانت محدثة فهي من أدل الدلالة على وحدانيته ووجوديته ، فإن كان كونها وهو معدوم بعلل منها :

- أن المحدث متعلق في العقل المحدثة ، كما كانت الكتابة متعلقة في العقل بكاتبها ، والنظم بناظمه، إذ لا يجوز كتابة لا كاتب لها ، ووجود أثر لا مؤثر له في الحس والعقل
- ومنها أن المحدث هو ما لم يكن فكُوِّن فهو في حال كونه لا يخلو من أحد أمرين:

- إما أن يكون كَوَّن نفسه وهو معدوم، أو غيره كونه، فإن كان هو الذي كون نفسه لم يخل أيضا من أحد أمرين:

** إما أن يكون كَوَّنَ نَفْسَه وهو معدوم أو كَوَّنها وهو موجود فإن كان كونها وهو معدوم، أُوجِد، فَمُحَال أن يكون المعدوم أَوْجد نفسه وهو معدوم، وإن كان كونها وهو موجود فمحال أن يكون الموجود أوجد نفسه وهو موجود !! إذ وجود نفسه قد أغناه عن أن يُكَوِّن بها نفسه ثانيا.

فإذا بطل هذا ثبت أن الذي كونه غيره، وأنه قديم ليس بمحدث إذ لو كان محدثا كان حكمه حكم المحدث.

وإن كانت الأحوال قديمة فذلك يستحيل لأنَّا نراها تحدث شيئا بعد شيء في حيز واحد في نفس واحد ، ولو كانت كلها مع اختلافها في أنفسها وأوقاتها قديمة لكانت الترابية نطفة مضغة ثم علقة عظما لحما إنسانا في حالة واحدة !!

إذا القديم هو الذي يكون و لم يزل وجوده وإذا لم يزل وجود هذه الأحوال كان على ما قلت من كونه ترابا مضغة ثم علقة عظما لحما إنسانا في حالة واحدة ، إذا الأحوال لم تسبق بعضها بعضا ولأنها قديمة ولأن كل واحد منها في باب القدم سواء.

وإذا استحال وجود هذه الأحوال معا في حين واحد في حالة واحدة وثبت أن التراب سابق للنطفة والنطفة سابقة للحال التي معها صح الحدوث وانتفي عنها العدم وإذا صح الحدث فقد قلنا بدءً : إن المحدث متعلق في العقل بمحدثه.

قال الملحد : أنكرت أن تكون الأحوال محدثة ، وأن المحيز التي هي الجسم قديمة ؟

قال القاسم : أنكرتُ ذلك من حيث لم أره منفكا من هذه الأحوال ولا جاز أن تنفك كان حكم العين كحكم الأحوال في الحدث.

قال الملحد : و لم ؟

قال القاسم : من قِبَل أن المحيز إذا كانت قديمة وكانت الأحوال محدثة فهي لم تزل تحدث فيها الأحوال وإذا قلت : لم تزل تحدث فيها ناقضت ، لأن قولك : لم تزل خلاف قولك : تحدث .

والكلام إذا اجتمع فيه إثبات شيء ونفيه في حال واحد استحال ،وذلك أنها إذا لم تزل تحدث فيها فقد أثبتها قديما لم يزل يحدث فيها ،وإذا كان هذا هكذا فهي لم تسبق الحدث فقد صار الحدث قديما لأنه صفته الجسم الذي هو قديم .

وإذا كانت صفته، استحال أن يكون صفته القديم الذي لا يخلو منها ولا يزول عنها محدثا وهذا محال بيِّن الإحالة، لأن فيه تثبيت المحدث قديما والقديم محدثا.. !!

قال الملحد: فما أنكرت أن تكون الأشياء هي التي فعلت الأحوال ؟

قال القاسم: بمثل ما أنكرت زيادتك الأولى ، لأنه لا فرق بين أن تكون هي الفاعلة وهي لم تسبق فعله، أو تكون قديمة لم تسبق صفاتها.

لأن الفاعل سابق لفعله متقدم له، فكذلك القديم الذي لم يزل سابق للذي لم يكن، لأن في إثبات الفعل له، إثبات بحدث فعله وهذا لم يسبق فعله فقد جمعت بينهما في حالة واحدة، وهذا محال بَيِّن الإحالة.

قال الملحد: فإني لم أَرَ كونه شيئا إلا من شيء ، فما أنكرت أن تكون الأشياء لم تزل يتكون بعضها من بعض ؟ وما أنكرت أن يكون الشيء الذي هو الأصل قديما ؟

قال القاسم : أنكرت أشد الإنكار ، وذلك أن الشيء الذي هو الأصل لا يخلو من أن يكون فيه من الأحوال والهيئات والصفات مثلها في فرعه أَوْ ليس كذلك، فإن كان فيه مثلها في فرعه فحكمه في الحدوث كحكمه ، وقد تقدم الكلام في هذا المعنى ما فيه كفاية.

على أنَّا نجد الصور والألوان والهيئات بعد ألا نجدها ووجود الشيء بعد عدمه هو أدل الدلالة على محدثه

فحدثني عن الصورة من أصل حدثت ؟ !!

فإن قلت: إنها قديمة، أحلت وذلك أنها لا تخلو من أمور

أحدها : أن الصورة لو كانت قديمة لكانت في هذا التصور الذي ظهرت الصورة فيه أو في عنصره الذي يسمونه هيولا

فإن كانت في هذا التصور الذي ظهرت الصورة فيه فإنه قد يوجد على خلاف هذه الصورة.

وإن كانت في الذي تسمونه هيولا فلابد إذا ظهرت في هذا المصور أن تكون انتقلت عنه إلى هذا

فإن قلت : انتقلت :أحلتَ ، لأن الأعراض لا يجوز عنها الانتقال فظهرت عند اللبث

* وفيه خُلَّة أخرى وهي أنها لو كانت في الأصل ثم انتقلت عنه إلى فرعها فقد جعلت لانتقالها غاية ونهاية، فقد صح حدث الذي انتقلت عنه هذه الأحوال

فإن قلت : لم تزل تنتقل !! .. كان الكلام عليك في هذا اللغو ، كالكلام الذي قدمناه آنفا (لم تزل تحدث)

* وفيه معنى آخر وهو أنك إذا جعلت الأشياء في وهمك شيئين، إذا أفردت كل واحد من صاحبه نقص وانتهى إلى حد ما.

أفليس إذا انتهى في حال وزاد فكثر، أو نقص فقل، فالنقص والزيادة يحدثان بالنهاية عنه وإذا ثبت فيه النهاية ثبت فيه الحدوث !!

قال الملحد: وما أنكرت أن تكون صورة التمرة والشجرة كامنة في النواة فلما وجدت ما شاكلها ظهرت ؟

قال القاسم : إن هذا يوجب التجادل ، وذلك أنَّا لو تتبعنا أجزاء النواة لم نجد فيها ما زعمت.

- شيء آخر وهو أنه لو جاز هذا جاز أن تكون الأشياء كامنة منه في صورة خنزير والحمار والكلب، فيكون الإنسان إنسانا في الظاهر كلبا حمارا خنزيرا في الباطن !!!

فإن قلت ذلك : لحقتَ بالطبائعية ، فإن شئت تكلمنا فيه ،على أنه قد ظهر من حمقهم لأهل العقول ما يرغبهم عن القول بمقالتهم .

قال الملحد : وكيف يجوز أن يكون الإنسان إنسانا في الظاهر، وكلبا وحمارا في الباطن ؟ ، فإن بين التمرة والنخلة والنواة مشاكلة، وليس بين الإنسان والكلب مشاكلة ؟

قال القاسم : لو كان بين النواة والتمرة والنخلة مشاكلة مع اختلاف التشريحات لجاز أن يكون بين الإنسان والكلب مشاكلة .

- ووجه آخر وهو أن الصورة لو كانت في الأصل نفسه لكان الأصل نفسه هو التمرة، إنما كانت من تمرة المصورات، وعرفت من غيرها بالصورة.

فعلى هذا يجب أن يكون أصلها تمرة، وهذا مكابرة للعقول، لأنه لو كان هذا كذلك لكان ظهورها في نواها، ولعرف واشتهر وعم ولم يستحل وجود صورتين معا في حين واحد.

قال الملحد : إن النواة هي تمرة بالقوة الهيولية ، أعني أنها إذا انتقلت لم تنتقل إلا إلى شجرها ، ثم إلى تمرها ثم تعود إلى أصلها فتصير نواة في وسطها.

قال القاسم: لو كان هذا هكذا لكانت الطبيعة التي هي الأصل تمرة بالقوة، لأنها إذا انتقلت انتقالاتها صارت تمرة، وهذه مكابرة واضحة، وذلك يوجب عليك أن الأصل البحت تمرة، خوخة، باذنجان ....إلخ لأنه جائز عندك الانتقال من صورة إلى صورة ، وإذا كان حكم الأصول في الهيئات خلاف حكم الفروع فسنقول فيه قولا شافيا إن شاء الله .

قال الملحد : إن صح أن حكم الأصول في الهيئات حكم الفروع ، تركت مذهبي ، فإنه قد عظمت عليّ الشبهة في هذا الموضع .

قال القاسم : اعلم أن طُرُق العلم بالأشياء مختلفة ، فمنها ما يُعرف بالحس، ومنها ما يعرف بالنفس، ومنها ما يعرف بالعقل، ومنها ما يعرف بالظن والحسبان:

١- فأما الذي يعرف بالحس فطرقه خمس: سمع وبصر وشم ولمس وذوق،

فالسمع طريق الأصوات ، والكلام والبصر طريق الألوان والهيئات ، والذوق طريق الطعوم، والشم طريق الأرائح ، واللمس طريق اللين والخشونة.

٢- وما يعرف بالنفس: الخجل والوجد والسرور والحزن والصبر والجزع واللذة والكراهية، وما أشبه ذلك من التوهم وغيره.

٣- وما يعرف بالعقل شيئان : أحدهما : ما يدرك بهيئته، مثل تحسين الحسن، وتقبيح القبيح، وحسن التفضل وشكر المنعم، ومثل تقبيح كفر المنعم والجور وما يجانسه من علم بدائه العقول ، والوجه الثاني : هو الاستنباط والاستدلال الذي هو نتيجة العقول ، كمعرفة الصانع، وعلم التعديل والتجوير ، والعلم بحقائق الأشياء.

٤- وما يعرف بالظن والحسبان : فهو القضاء على الشيء بغير دليل قطعي أو بالقياس علي غيره.

إنما لخصت لك هذا كله ليكون عونا لنا فيما سنعرض من كلامنا، ويكون أحد المقدمات التي نرجع إليها، فكل شيء من هذه العلوم لا يصاب إلا من طريقه، ولو حاولته من غير طريقه تعثر عليك وكُبِتَّ ، كمن طلب علم الألوان بالسمع ، وعلم الذوق بالعين .

فأما أحوال الأجسام فإن طريق المعرفة بها من جهة البصر، والبصر لا يؤدي من الرؤية إلا الأجسام لأن الأجسام لا يجوز أن يخلو من هذه الصفات فيتوهمه ويمثله في نفسه خاليا منها، فإذا لم يجز ذلك ثبت أن الأجسام لا تخلو من هذه الصفات وأنه لا يجوز حكم أصولها إلا كحكم فروعها.

قال الملحد : إنهم زعموا أن علة كون الأشياء وفسادها حركات الفلك وسير الكواكب، وبعضهم يقول : إن علتها تمازج الطبيعتين، أعني الظلمة والنور، وبعضهم يقول غير ذلك .

قال القاسم : الدليل على فساد قولهم قول الله تبارك وتعالى :﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ (النحل٧٠) ، وقوله :﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ (يّــس:٦٨)

فلو كان علة كونه ما ذكروا ، لكان الإنسان لا يتوفي أحد في طفولته ، ولا يفسد كونه مع وجود علة كونه، اللهم إلا أن يقروا بحدوث علة الفساد فيكونوا حينئذ تاركين .

فإن قالوا : بل علة كونه وفساده قديم ، فالشيء إذا كان فاسدا في حال كان فيه صالحا إذ عللهما موجودة، ومحال أن يكون عللهما موجودة ويتوفي هذا في الطفولية ويرد هذا إلى أرذل العمر ، ويُنَكس هذا في الخلق أو يُعَمَّر . إن هذا لعمري لعكس العقول .

قال الملحد : لو لزمهم هذا للزمك، حين زعمت أن الله علة كون الأشياء وفسادها مثل ما ألزمت خصومك .

قال القاسم:لا سواء، وذلك أنَّا لا نزعم أن الله علة كون الأشياء وفسادها، بل نزعم أن الله هو الذي كَوَّن الشيء وأفسده، من غير ما اضطرار.

والدليل على أن الله عز وجل ليس بعلة ذلك ، أن أفعاله مختلفة الأحوال ، مستقلة الصفات فلو كان هو العلة ما زال شيء عن صنعه لأنه عز ذكره قديم، والقديم لو كان علة شيء لم يزل معلوله، كما لم يزل هو في ذاته وفي زوال الأشياء ،ما يدل على أن الله عز وجل ليس بعلة ولا معلول.

قال الملحد: بارك الله فيك وفيمن ولدك، فقد أوضحت ما كان ملتبسا عليَّ، وإن سألتك عن غيرها فإن أجبتني عنها كما أجبت أسلمتُ.

قال القاسم: إن أسلمتَ فخير لك، وإن أصررتَ فلن يضر الله إصرارك. سل عما بداك .

قال الملحد: ما الدلالة على أن صانع العالم واحد ؟

قال القاسم : لو كان أكثر من واحد لم يخل من أن يكون كل واحد من الصانعين حيا قادرا، وليس كذلك، فإن كان كل واحد منهما حيا قادرا لم يكن محالا متى أراد هذا خلق شيء أن يمنعه الآخر من خلقه لذلك الشيء بعينه، ولو منعه صاحبه من ذلك الشيء كان الممنوع عاجزا وذلك عجزه على حدثه .

وإن تمانعا وتكافأت قواهما، وقع الفساد و لم يتم لواحد منهما خلق شيء ، ودخل على كل منهما العجز، إذ لم يقدر كل واحد منهما على مراده ، فلما وجدنا العالم منتظما منسق التدبير دلنا أن صانع ذلك ليس باثنين ولا فوق ذلك .

قال الملحد: ما أنكرت أن يتفقا ويصطلحا ؟

قال القاسم: إن الاتفاق والاصطلاح يدلان على حدث من غيرهما، لأنهما لا يتفقان إلا عن صرفة والمضطر محدث لا محالة.

قال الملحد: إنهم يقولون إن صانع الخير لا يأتي بالشر أبدا، وكذلك صانع الشر لا يأتي بالخير أبدا.

قال القاسم : إن هذا مكابرة العقول

قال الملحد : كيف ذلك ؟

قال القاسم: ذلك يدعو إلى القول:بأن أحدا لم يذنب قط ثم يعتذر من ذنبه، وإلى القول بأن إنسانا واحدا لم يكذب و لم يضل و لم يهتد !!

ألا ترى أنهم يزعمون أن استدلالهم حق وأنه واجب على الناس الرجوع إلى مذهبهم، فإن كان الشيء الواحد لا يأتي بالخير والشر فحدثني من يدعون مذهبهم !!

فإن قالوا: الخير، قيل: فإن الخير لا يضل أبدا.

وإن قالوا: الشر، فإن الشر لا يهتدي أبدا.

فليت شِعْري ما هذا الذي يدعونه إلى مذهبهم !!

قال الملحد: لَعَمْري لقد لطفت في الاستخراج على القوم، ولعمري إن هذا مما يقطع شغبهم، ولكنهم يقولون: لما كان في العلم خير وشر دلنا على أنهما من أصلين قديمين.

قال القاسم : أما وجود الخير والشر في العالم فإنا نجده ، إلا أن هذا يدلنا على أن صانع العالم واحد، والدليل على ذلك : أن الخير والشر يبعثان على الخير والشر ، ووجدناهما محدثين ، وقد قدمنا الكلام في هذا المعنى بما فيه الكفاية ، وبينا أن العالم أصله وفرعه محدث ، وأن المحدث يقتفي المحدث.

وإن كان حكم فاعله كحكمه، أوجب ذلك حدوث صانع العالم ويقتضي المحدث ، فإن كان هذا هكذا فلكل صانعٍ صانعٌ إلى ما لا نهاية ، وقد بينا فساده آنفا .

**ووجه آخر وهو أن الخير والشر أمر اختلافهما يدل على قدمهما وليس اختلافهما بأكثر من اختلاف الصور والهيئات.

وقد قلنا إن اختلافهما يدل على قدمهما من خالف بينهما واخترعهما مختلفين، فلو كان الخير والشر مجتمعين في حيز واحد فلا يخلو حال اجتماعهما من أمور:

١- إما أن يكون اجتمعا بأنفسهما، أو جمعهما غيرهما. فإن كان اجتمعا بأنفسهما فمخالف ذلك أنهما ضدّان، والضدان لا يجتمعان بأنفسهما، مع أنا نشاهد نفورهما ، وفرار كل واحد منهما من صاحبه ، فإذا فسد ذلك لم يبق إلا جامعا يجمعهما .

٢- ووجه آخر وهو أنه لو كان وجود الخير والشر إلا على أن لهما أصلين قديمين، لكان وجود الصانع الأربع دالا على أن لها أصولا قديمة، وإذا كان هذا هكذا دلنا على أن شاهدا شاهد زور.

قال الملحد: فإذا لم يكن العالم قديما، ولا كان مزاج الاثنين، وكان صنعا من صانع قديم، فحدثني لم خلق الله هذا العالم ؟

قال القاسم: إن هذا الكلام فرع من أصل، فإن سلمت لي الأصل كلمتك فيه، وإلا نازعتك في الأصل.

قال الملحد: وما ذلك الأصل ؟

قال القاسم: هو أن تعلم بالدلائل أن العالم مُحْدَث وأن له مُحْدِثًا، ثم تعلم أن مُحْدِثَه واحد قديم، ثم تعلم أنه قادر، حي، حكيم في نفسه وفعله.

قال الملحد: قد دللت على الصانع وعلى أنه واحد، فما الدليل على أنه قادر حي حكيم ؟

قال القاسم : الدليل على ذلك: أنَّا وجدنا الفعل واقعا، دلنا ذلك على أن صانعه حكيم عالم قادر حي .

قال الملحد: فهل وجدت الفاعل الحكيم لقادر سوى الإنسان ؟

قال القاسم : لا

قال الملحد: أفتقول: إنه إنسان ؟

قال القاسم : إني وإن لم أجد إلا إنسانا فلم يقع الفعل منه ، إذ قد وجدنا إنسانا يتعذر عليه الفعل ، فلما وجدنا متعذرا عليه دلنا ذلك على جواز وجود فاعل ليس بإنسان ، ألا ترى أنا لما قلنا : إنه لا يجوز كون الفعل إلا من قادر حكيم جائز منه ذلك وكان قولنا فيه مستمرا و لم يستمر القول في ذلك لم نقل !!

قال الملحد : قد أبلغت في هذا فلترجع إن شئت إلى مسألتي .

قال القاسم : سل .

قال الملحد: لم خلق الله العالم ؟

قال القاسم: قال الله تعالى :﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (الملك:٢) وقال:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذريات:٥٦) وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:١٣) فأخبرنا أنه خلقنا للعبادة والابتلاء، ليبلغ بنا إلى أرفع الدرجات وأعلى المراتب .

قال الملحد: فما دعاه إلى خلقنا ألحاجة خلق ؟

قال القاسم : قولك : ما دعاه !! .. فمحال وذلك أنه لم يزل عالما بلا سهولة ولا غفلة.

- فقولك ما دعاه .. محال ، لأن الدعاء و التنبيه والتذكير إنما يحتاج إليها الغافل ، فأما الذي لا يجوز أن يغفل فمحال أن يدعوه شيء إلى شيء ، إذ لا غفلة هنالك ولا سهو ، والدلالة على ذلك أن الغفلة من الدلالة على الحدوث ، وقد قامت الدلالة على أنه قديم.
- وأما قولك : ألحاجة خلق ، فالحاجة أيضا من صفات المحدثين والقديم يتعالى عنها .

قال الملحد : فلم خلق ؟

قال القاسم: أما قولك: لم خلق ؟ فقد أجبتك، لأن قولك : لم ؟ وقولي : لأن ..إجابة !!

قال الملحد : فما وجه الحكمة في خلق العالم وخلق الممتحنين ؟

قال القاسم : وجه الحكمة في ذلك : أنه إحسان، أو داع إلى الإحسان ، وكل من أحسن أو دعى إلى إحسان فهو حكيم فيما يُصرفه .

قال الملحد: وكيف يكون حكيما من خلق خلقا فآلمه بأنواع الآلام، وامتحنه بضروب من الامتحان ؟ خبرني عن وجه الحكمة في ذلك ؟

قال القاسم : أما قولك : كيف يكون حكيما من خلق خلقا فآلمه بأنواع الآلام ؟ ... فوجه الحكمة في ذلك ما هو داع إلى الإحسان ، من ذلك ضرب المؤدبين للصبيان ، ومن الحجامة والفصد، وشرب الأدوية الكريهة ، كل ذلك داعية إلى الإحسان ، وإلى شيء حسن في العقل ، فإن كان من الآلام في الشاهد ما هو كذلك فكل ما كونه الله من قبل ، مثل الموت والمرض والعذاب وغيره حكمة في الصنع وصواب في التدبير، إذ كان كل ذلك داعية إلى الإحسان .

قال الملحد: ما الدليل على أن ذلك داعية إلى الإحسان؟

قال القاسم: الدليل على ذلك أنها أفعال حكيمة، وقد صح على أن الحكيم إنما يفعل هذه الأشياء التي هي الترغيب في السلامة والصحة والخير، والترهيب من الغم والشر والنِّقَم، ومن رغب في الخير فحكيم فيما نعرفه.

- وأما قولك : لم امتحن امتحانات غصب أكثرهم عندها ؟

فإنا نقول في ذلك ، ولا قوة إلا بالله : إن الله تعالى إنما امتحانه وأمره ونهيه وداعيه له من الحكمة فمن غصب فمن قِبَل نفسه، لأنه لم يأتمر بما أمر الله سبحانه ، ولا انتهى عما نهاه، ولو كان انتهى عما نهاه الله عنه وركب ما أمره الله به ، لكان يؤديه ذلك إلى الفوز العظيم فهو من قبل نفسه غصب، لا من قبل الله عز وجل .

ومثل ذلك فيما نعرفه أن حكيما من حكمائنا لو أعطى عبيدا له دراهم ، وقال لهم : تاجروا ، فإن ربحتم و لم تفسدوا فأنا معطيكم ما يكفيكم ، وإن لم تفعلوا عاقبتكم ، فأطاعه منهم قوم وعصاه آخرون ، و لم ترجع اللائمة عليه بعصيانهم إياه ، ولكنها لاحقة بهم حين عصوه، و لم يخرج بها سيدهم من الحكمة إذ لم يدعهم به إلا إلى الإحسان، فلما كان ذلك كذلك ، كان الله حكيما بامتحانه، وأمره ونهيه .

قال الملحد: إن الله يعلم ما هم صائرون إليه، ونحن لا نعلم ذلك ؟

قال القاسم: إن الجهل والعلم لا يُحَسِّن الحسن، ولا يُقَبِّح القبيح، وذلك أنه لو كان حسنا لأن الآمر به يعلم أنه يفعله لكان ذلك قبيحا ، إذا كان الأمر منا بما يصير إليه المأمور جاهلا، فلما لم يكن ذلك قبيحا ، لجهل الآمر منا ، لأنه إنما أمر بالحسن ودعا إلى الحسن ، وإن كان جاهلا بما يصير إليه المأمور أو عالما .

*وشيء آخر وهو أنه لو كان الامتحان قبيحا إذا علم أنه يعصي لكان لا شيء أقبح من إعطاء العقل ، لأنه إنما يعصي عند وجوده ويستحق المدح والذم به ، فلما كان إعطاء العقل عند الأمم كلها مُوَحِّدها ومُلْحدها حسنا ، دلّ ذلك بأن الامتحان والخلق والأمر بالحسن كله حسن ، علم أنه يعصي أو يطيع .

قال الملحد : فلم مزج الخير بالشر ؟ و لم صار واحد غني ، وواحد فقير ، وواحد قبيح، و الآخر حسن ؟

قال القاسم: لأن هذه الدار دار امتحان وبلاء، وحقيقة الامتحان هو أن يخلق فيه أو يأمره بشيء ثقيل على طاعته، فينظر هل يطيع أو لا يطيع ؟ .

ولو خلق الله ما هو خفيف على طباعه ثم أمره بالخفيف لكان ذلك لذة له وليس امتحانا ، فلما كانت هذه الدار دار امتحان ، وكان الواجب في صواب التدبير أن يمزج الخير بالشر ، والنفع بالضر ، والمكروه بالمحبوب ، والحسنة بالسيئة ، والكريه المنظر بالحسن في النظر ، إذا كان الدار دار امتحان ، لأنه لو كله محبوبا كان دار ثواب ، ولو كان كله كريها ، كان دار عقاب ودار الثواب والعقاب هذه صفتها .

واعلم أنه لو لم تعرف علل ذلك كان جائز، من ذلك أنه في بدء الأمر إذا أقمت الدلالة على أنه حكيم في نفسه وفعله، ثم دللت على أن الكل من أفعاله حكمة استغنيت عن معرفة علله.

ومثال ذلك من الشاهد : أنا لو هجمنا على آلات من آلات الصانع فرأينا اعوجاج المعوجات ، واستواء المستويات، وصغر بعضها ، وكبر بعضها ، وغلظ بعضها ، ورقة بعضها ، فحكمنا على صانعها أنه غير حكيم ، لكنا جاهلين بالحكمة ، نضع الحكمة في غير موضعها ، بل حينئذ الواجب علينا أن نسلم للحكماء حكمهم ، ونعرف أنهم لا يفعلون شيئا من ذلك إلا لضرب من الحِكَم يعرفونه، ونعلم أن المعوج والمستوي وكل زوج فيها لا يصلح له الآخر، فحينئذ وضعنا الحكمة في موضعها . فاعرف ذلك وتبينه بحدة كما قلنا إن شاء الله .

فلما كانت أفعال الله كلها إحسانا ، أو داعية إلى الإحسان كان تبارك وتعالى بفعلها كلها حكيما ، إذ كل ذلك يحسن في العقل

فإن قلت: لم فعل الحسن في العقل ؟

قيل: يفعل الحسن لحسنه، ولو لم يفعل الحسن في العقل لحسنه، كان لا يترك القبيح لقبحه في العقل وكفي بهذا القول قبحا.

قال الملحد: ما الدليل على أن الصانع له رسول ؟

قال القاسم: الدليل على ذلك أن الصانع حكيم محسن إلى خلقه ، وفي العقل أن شكر المنعم واجب فلما كان هذا في عقولنا واجبا وكان الله حكيما مُنْعِما على خلقه ، كان من كمال النعمة أن أرسل إليهم الرسل، مع دلائل اضطرت العقول عندها لتبين لهم كيفية شكره، لأن كيفية شكره ليس مما يعلم العقل ، ولا بالنفس ولا بالحس ، ولا بالنظر ، وإن كان في العقل جوازه وحينئذ أقام عندهم دلائل ومعجزات تدل على صدقهم.

قال الملحد : كأنك تقول إن شرائع الأنبياء خارجة عن العقول ، إذ قلت : لا نعلم كيفيتها ؟

قال القاسم : أما قولك : إن شرائع الأنبياء خارجة عن العقول إذ ليس فيها كيفيتها ، فإني لم أقل لك : كيفيتها ليس فيها تكون بينة اشترطت لك ، فقلت : إنه وإن لم يكن فيها كيفيتها ففيها جواز كونها .

قال الملحد : وكيف ذلك ؟

قال القاسم : هو مثل ما نعرفه في الشاهد ، وذلك لو أن سيدا أمر عبده ببناء دار، أو قطع شجرة، أو إعطاء عبد الله، أو ضرب زيد، فإنه ليس في العقل أن السيد يأمر به فإذا أمر به كان في العقل أن الائتمار به حسن وأن تركه قبيح ، إذا كان لأمر سيده عاقبة محمودة ورجع نفع إلى العبد.

فالعقل يجوز الأمر فكل شيء على خياله، ولا يوجب شيئا من ذلك دون شيء إذا كان ذلك الأمر مما ينقل حاله في العقل وذلك أنه قد يكون الشيء إلى موضع ما حسنا في العقل إذا كان للشيء معنى حسن.

فأما اللواتي يدرك حكمها في العقل فقد أدركه بأن الأمر بها لا يأمره إلا بما هو حسن، ولا ينهى إلا عما هو قبيح عنده.

قال الملحد:فحدثني عن الصلاة والصيام، وغيرها من الشرائع هل لها أصل في العقل يفرع هذا منه ؟

قال القاسم : أجل قد أخبرتك به آنفا ، وهو كالأمر بالشيء إلى موضع ما ، وكضرب زيد ، وإعطاء عبد الله ، ليس له أصل في العقل أكثر من الائتمار لأمر الحكيم ، ووجه الحكمة فيه : أن الآمر إنما يأمر به لينظر هل يأتمر به المأمور فيجازيه ذلك ، لا سيما إذا كان الآمر مستغنيا غير محتاج إلى ما يأمر به، وإنما يأمرهم ليمتحنهم ، وليظهر بذلك أعمالهم فإن الأمر به حسن وعلى ذلك سبيل الشرائع كلها .

قال الملحد: خبرني عن كيفية معجزاهم ؟

قال القاسم: هو قلب العادات، وأن لا يترك العادات جارية على مجراها.

فإذا جاء أحدهم وقال له قومه: ما الدلالة على كذا وكذا إلى كذا وكذا ؟ فحينئذ يعرفون صدقه، وهذه سبيل المعجزات كلها، وبمثل ذلك نفرق بين النبي والمتنبي وبين الصادق والكاذب.

قال الملحد: فإنه بقي في قلبي شبهة، فأحب أن تقلعها بحسن رأيك ونظرك.

خبرني عن الله عز وجل، لم يميت الإنسان ويصيره ترابا بعد أن جعله ينطق بغرائب الحكمة، وبعد هذه الصورة العجيبة البديعة، و لم يفني العالم كله أرأيت لو أن إنسانا بنى بناء فنقضه لا لمعنى هل يكون حكيما ؟

قال القاسم: ليس الأمر كما ظننته، أرأيت لو أن إنسانا بنى بناءً للشتاء، فلما جاء وقت الصيف نقضه وبنى للصيف هل يكون حكيما ؟

قال الملحد: نعم

قال القاسم: و لم ؟

قال الملحد: لأن الذي اتخذه للشتاء لا يصلح للصيف، وكذلك الذي اتخذه للصيف لا يصلح للشتاء.

قال القاسم: وكذلك الله عز وجل خلق الدنيا وما فيها للابتلاء، فإذا انتهى إلى أجله أفناها وبعثرها.

ثانيا :﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ (النجم ٣١)، ولا يكون ذلك خروجا من الحكمة ، بل الحكمة أن لا يضيع الثواب والعقاب .

قال الملحد: إن التوحيد والتعديل والرسل قد تكلم فيه ناس من أهل العلل وكل يشك في الميت هل يحيى أو لا ؟ وكل يجيء في ذلك بشيء فإن دللت على ثباته وكيفيته، لم يبق لي مسألة ؟

قال القاسم : أما الدلالة على حياها فإني قد وجدت الله تبارك وتعالى حكيما قد امتحن خلقه وأمرهم وهاهم ، وكان قول من يقول بإرادته الامتحان داعيا إلى الإهمال ، والإهمال داع إلى أن الله غير حكيم ، وإذا جاز أن يكون العالم قديما لأنه لا فرق بين أن يفعل من ليس بحكيم هذا الصنيع العجيب، وبين أن يقع فعل الآمر ومحال موجودة فتكون قديمة أزلية لا فاعل لها .

ووجدت هذا القول داعيا إلى التجاهل فلما كان ذلك كذلك صح أن الله حكيم ، والحكيم لا يهمل خلقه وإذا لم يهمل خلقه لم يكن بد من أمر وهي ، ولم يكن بد من مُؤتَمِر وغير مؤتمر .

وإذا كان من حكم العقل أن نفرق بين الولي والعدو ، ووجدنا أعداءه وأولياءه مستوية الأحوال في الدنيا ، لأنه كما أن في الأعداء من هو مؤثر صحيح، وفيهم من هو معسر مريض ، وكذلك الأولياء فلما كانت في الدنيا أحوالهم مستوية ولم يكن بد من التفرقة بينهما ، صح أن دارا أخري فيها نفرق بينهما ، وفيها يحيون وفيها ينشرون ، إذا قد وجدت هذه الحال قد اشتمل بالكل ، الولي والعدو وذلك قوله عز وجل :﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (ص ٢٨)

وأما قولك : أخبرني عن كيفيتها ؟

فإن الله عز وجل جعل الروح لجسد الإنسان حياة له ، كالأرض إذا اهتزت بالماء وتحركت بالنبات ، كذلك الروح إذا صار في الإنسان صار حيا متحركا إذا امتزج أحدهما بصاحبه .

قال الملحد: وكيف تمتزج الروح بالبدن وقد صار ترابا ؟

قال القاسم: وكيف يمتزج الماء بالأرض الهامدة، إذا صار محله يابسة ؟

قال الملحد: هو أن تمطر عليها أو يجري فيها فتتصل أجزاء الأرض بأجزاء الماء بالمشاكلة التي بينهما فعندئذ تهتز وتتحرك .

قال القاسم: وكذلك الروح ترسل إلى ذلك التراب فتماسه وتمازجه، فحينئذ يحيا الإنسان ويتحرك.

ألا ترى إلى بدء خلق الإنسان كيف كان ؟ !! أوليس تعلم أنه كان ترابا فلما جمع الله بينه وبين روحه صار إنسانا ، فأصل خلق الإنسان بذلك على آخره أو لم تسمع قوله:﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس٧٩)

قال الملحد: إنه ليس بين الروح والتراب مشاكلة فيما نعرف ؟

قال القاسم: فهل تعلم بين النار والشجر الأخضر مشاكلة ؟

قال الملحد: نعم ، وهي أنها مجموعة من الطبائع الأربع، إحداهن النار وبين ثلاثتهن مشاكلة .

قال القاسم : الله أكبر هل تعلم بين النار وثلاثتهن مشاكلة ؟

قال الملحد: لا .

قال القاسم: فكيف اجتمعن ؟ إنه لما جاز أن تجتمع النار مع الماء والأرض والأهواء بلا مشاكلة بينهن، جاز للروح مثل ذلك .

قال الملحد حينئذ: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأن كل ما جاء به حق.

**ومن هذه المناظرات أيضا ما دار بين الشيخ محمد الغزالي وأحـدهم ،يقـول الشيخ محمد الغزالي [1] رحمه الله :

دار بيني وبين أحد الملاحدة جدال طويل، مَلَكْتُ فيه نفسي وأطلت صبري حتى ألقف آخر ما في جعبته من إفك، وأدمغ بالحجة الساطعة ما يوردون من شبهات

قال: إذا كان الله قد خلق العالم فمن خلق الله ؟

قلت له: كأنك بهذا السؤال أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لا بد لكل شـيء مـن خالق !!

قال: لا تلقني في متاهات، أجب عن سؤالي .

قلت له: لا لف ولا دوران، إنك ترى أن العالم ليس له خالق، أي أن وجـوده من ذاته دون حاجة إلى موجد، فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلاً ، وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا : إن الله الذي خلـق العـالم لـيس لوجوده أول ؟

إنها قضية واحدة، فلماذا تصدق نفسك حين تقررها، وتكـذب غـيرك حـين يقررها، وإذا كنت ترى أن إلهاً ليس له خالق خرافة، فعالَم ليس له خالق خرافـة كذلك، وفق المنطق الذي تسير عليه .. !!

قال: إننا نعيش في هذا العالم ونحس بوجوده فلا نستطيع أن ننكره !

قلت له: ومن طالبك بإنكار وجود العالَم ؟

إننا عندما نركب عربة أو باخرة أو طائرة تنطلق بنا في طريق رهيب، فتـساؤلنا ليس في وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها أو يسيرها قائد بصير؟ !!

([1]) في كتابه قذائف الحق صـ١٢١

ومن ثم فإنني أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك: إنه مردود عليك، فأنا وأنت معترفان بوجود قائم، لا مجال لإنكاره، تزعم أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة، وأرى أنه لا أول لها بالنسبة إلى خالقها.

فإذا أردت أن تسخر من وجود لا أول له، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين.

قال: تعنى أن الافتراض العقلي واحد بالنسبة إلى الفريقين ؟

قلت : إنني أسترسل معك لأكشف الفراغ والادعاء الذين يعتمد عليهما الإلحاد وحسب، أما الافتراض العقلي فليس سواء بين المؤمنين والكافرين.

إنني ــ أنا وأنت ــ ننظر إلى قَصْر قائم، فأرى بعد نظرة خبيرة أن مهندسا أقامه، وترى أنت أن خشبة وحديدة وحجرة وطلاءة قد انتظمت في مواضعها وتهيأت لساكنيها من تلقاء أنفسها .

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور، أنني وجدت قمرا اصطناعيا يدور في الفضاء، فقلت أنت: "انطلق وحده دونما إشراف أو توجيه " وقلت أنا :" بل أطلقه عقل مشرف مدبر"

إن الافتراض العقلي ليس سواء، إنه بالنسبة إليّ الحق الذي لا محيص عنه، وبالنسبة إليك الباطل الذي لا شك فيه، وإن كل كفار عصرنا مهرة في شتمنا نحن المؤمنين ورمينا بكل نقيصة، في الوقت الذي يصفون أنفسهم فيه بالذكاء والتقدم والعبقرية .

إننا نعيش فوق أرض مفروشة، وتحت سماء مبنية، ونملك عقلاً نستطيع به البحث والحكم، وبهذا العقل ننظر ونستنتج ونناقش ونعتقد.

وبهذا العقل نرفض التقليد الغبي كما نرفض الدعاوى الفارغة، وإذا كان الناس يهزءون بالرجعيين عبيد الماضي ويتندرون بتحجرهم الفكري، فلا عليهم أن

يهزءوا كذلك بمن يميتون العقل باسم العقل، ويدوسون منطق العلم باسم العلـــم، وهم للأسف جمهرة الملاحدة . !!

لكننا نحن المسلمين نبنى إيماننا بالله على اليقظة العقلية والحركة الذهنية، ونستقرئ آيات الوجود الأعلى من جولان الفكر الإنساني في نواحي الكون كله .

في صفحة واحدة من سورة واحدة من سور القرآن الكريم وجدت تنويها بوظيفة العقل اتخذ ثلاث صور متتابعة في سلم الصعود، هذه السورة هي سورة الزمـــر، وأول صورة تطالعك هي إعلاء شأن العلم والغض من أقدار الجاهلين قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُـــو الْأَلْبَـــابِ ﴾ (الزمر٩) ، ثم تجيء الصورة الثانية لتبين أن المسلم ليس عبد فكرة ثابتـــة أو عـــادة حاكمة، بل هو إنسان يزن ما يعرض عليه ويتخير الأوثق والأزكى ، قال سبحانه : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّـــهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (الزمر ١٧-١٨)

ثم يطرد ذكر أولى الألباب للمرة الثالثة في ذات السياق على أنهم أهل النظـــر في ملكوت الله الذين يدرسون قصة الحياة في مجالاتها المختلفة لينتقلوا من المخلـــوق إلى الخالق : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُـــمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٢١)

وظاهر من الصور الثلاث في تلك الصفحة من الوحي الخاتم، أن الإيمان لمبتـــوت الصلة بالتقليد الأعمى أو النظر القاصر أو الفكر البليد.

إنه يلحظ إبداع الخالق في الزروع والزهور والثمار، وكيف ينفلق الحمأ المسنون عن ألوان زاهية أو شاحبة، توزعت على أوراق وأكمام حافلة بالروح والريحان، ثم كيف يحصد ذلك كله ليكون أكسية وأغذية للناس والحيوان، ثم كيف يعـــود

الحطام والقمام مرة أخرى زرعا جديد الجمال والمذاق ، تهتز به الحقول والحدائق، مَن صنع ذلك كله ؟

قال صاحبي [1] وكأنه سكران يهذى: الأرض صنعت ذلك !!

قلت: الأرض أمرت السماء أن همي، والشمس أن تشع، وورق الشجر أن يختزن الكربون ويطرد الأوكسجين ، والحبوب أن تمتلئ بالدهن والسكر والعطر والنشا ؟

قال: أقصد الطبيعة كلها في الأرض والسماء !

قلت: إن طبق الأرز في غذائك أو عشائك تعاونت الأرض والسماء وما بينهما على صنع كل حبة فيه، فما دور كل عنصر في هذا الخلق ؟ ومن المسئول عن جعل التفاح حلوا والفلفل حريفا، أهو تراب الأرض أم ماء السماء ؟

قال: لا أعرف ولا قيمة لهذه المعرفة !!

قلت: ألا تعرف أن ذلك يحتاج إلى عقل مدبر ومشيئة تصنف ؟

فأين ترى العقل الذي أنشأ، والإرادة التي نوعت في أكوام السباخ، أو في حزم الأشعة ؟

---

(1) ربما قصد الشيخ صاحبه في الحوار ، وليست المصاحبة المعروف لأنه لا يجوز شرعا أن يُصاحب المؤمن غير المؤمن لحديث النبي صلى الله عليه وسلم:" لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي " رواه أبو داود في كتاب الأدب،باب:من يؤمر أن يجالس رقم (٤٧٩٩) ، والترمذي في كتاب الزهد باب ما جاء في صحبة المؤمن رقم (٢٣٩٥) وقال: هذا حديث حسن. وعليه فلا يجوز أن يقول المؤمن صديقي الملحد ، أو صاحبي النصراني ، أو الإخوة النصارى، وهذا الحديث أيضا أصل في الإنكار على من يقيمون إفطارا جماعيا في رمضان ويدعون إليه بعض النصارى ، بدعوى الإخوة والصداقة ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم :"ولا يأكل طعامك إلا تقي" فليحذر الذين يخالفون عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

قال: إن العالم وجد وتطور على سنة النشوء والارتقاء ولا نعرف الأصل ولا التفاصيل !!

قلت له: أشرح لكم ما تقولون ! تقولون: إنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان مجموعة من العناصر العمياء، تضطرب في أجواز الفضاء، ثم مع طول المدة وكثرة التلاقي سنحت فرصة فريدة لن تتكرر أبد الدهر، فنشأت الخلية الحية في شكلها البدائي، ثم شرعت تتكاثر وتنمو حتى بلغت ما نرى ..!!

هذا هو الجهل الذي سميتموه علما، و لم تستحوا من مكابرة الدنيا به !!

أعمال حسابية معقدة تقولون: إنها حلت تلقائيا، وكائنات دقيقة وجليلة تزعمون أنها ظفرت بالحياة في فرصة سنحت ولن تعود !! وذلك كله فرارا من الإيمان بالله الكبير !!

قال وهو ساخط: أفلو كان هناك إله كما تقول كانت الدنيا تحفل بهذه المآسي والآلام، ونرى ثراء يمرح فيه الأغبياء، وضيقا يحتبس فيه الأذكياء ، وأطفالا يمرضون ويموتون، ومشوهين يحيون منغصين .؟

قلت: لقد صدق فيكم ظني، إن إلحادكم يرجع إلى مشكلات نفسية واجتماعية أكثر مما يعود إلى قضايا عقلية مهمة !!

ويوجد منذ عهد بعيد من يؤمنون ويكفرون وفق ما يصيبهم من عسر ويسر، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الحج:١١)

قال: لسنا أنانيين كما تصف، نغضب لأنفسنا أو نرضى لأنفسنا، إننا نستعرض أحوال البشر كافة، ثم نصدر حكمنا الذي ترفضه.

قلت: آفتكم أنكم لا تعرفون طبيعة هذه الحياة الدنيا ووظيفة البشر فيها، إنها مَعْبر مُؤَقت إلى مستقر دائم، ولكي يجوز الإنسان هذا المعبر إلى إحدى خاتمتيه لا

بد أن يُبتلى بما يصقل معدنه ويهذب طباعه، وهذا الابتلاء فنون شتى، وعندما ينجح المؤمنون في التغلب على العقبات التي ملأت طريقهم، وتبقى صلتهم بالله واضحة مهما ترادفت البأساء والضراء، فإنهم يعودون إلى الله بعد تلك الرحلة الشاقة ليقول لهم: ﴿ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(الزخرف ٦٨)

قال: وما ضرورة هذا الابتلاء ؟

قلت: إن المرء يسهر الليالي في تحصيل العلم، ويتصبب جبينه عرقا ليحصل على الراحة، وما يسند منصب كبير إلا لمن تمرس بالتجارب وتعرض للمتاعب، فإن كان ذلك هو القانون السائد في الحياة القصيرة التي نحياها على ظهر الأرض، فأي غرابة أن يكون ذلك هو الجهاد الصحيح للخلود المرتقب ؟

قال مستهزئاً : أهذه فلسفتكم في تسويغ المآسي التي تخالط حياة الخلق وتصبير الجماهير عليها ؟

قلت: سأعلمك – بتفصيل أوضح– حقيقة ما تشكو من شرور، إن هذه الآلام قسمان: قسم من قدر الله في هذه الدنيا، لا تقوم الحياة إلا به، ولا تنضج رسالة الإنسان إلا في حَرِّه، فالأمر كما يقول الأستاذ العقاد: " تكافل بين أجزاء الوجود، فلا معنى للشجاعة بغير الخطر، ولا معنى للكرم بغير الحاجة، ولا معنى للصبر بغير الشدة، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها وترجح عليها ، وقد يطرد هذا القول في لذاتنا المحسوسة كما يطرد في فضائلنا النفسية ومطالبنا العقلية، إذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع، ولا نستمتع بالري ما لم نشعر قبله بلهفة الظمأ، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح"

وهذا التفسير لطبيعة الحياة العامة ينضم إليه أن الله جل شأنه يختبر كل امرئ بما يناسب جبِلَّته، ويوائم نفسه وبيئته، وما أبعد الفروق بين إنسان وإنسان، وقد

يصرخ إنسان بما لا يكترث به آخر، ولله في خلقه شئون، والمهم أن أحداث الحياة الخاصة والعامة محكومة بإطار شامل من العدالة الإلهية التي لا ريب فيها .

إلا أن هذه العدالة كما يقول الأستاذ العقاد:" لا تحيط بها النظرة الواحدة إلى حالة واحدة، ولا مناص من التعميم والإحاطة بحالات كثيرة قبل استيعاب وجوه العدل في تصريف الإرادة الإلهية . إن البقعة السوداء قد تكون في الصورة كلها لونا من ألوانها التي لا غنى عنها، أو التي تضيف إلى جمال الصورة ولا يتحقق لها جمال بغيرها، ونحن في حياتنا القريبة قد نبكي لحادث يعجبنا ، ثم نعود فنضحك أو نغتبط بما كسبناه منه بعد فواته"

تلك هي النظرة الصحيحة إلى المتاعب غير الإرادية التي يتعرض لها الخلق .

أما القسم الثاني من الشرور التي تشكو منها يا صاحبي فمحوره، خطؤك أنت وأشباهك من المنحرفين [1]

قال مستنكرا: أنا وأشباهي لا علاقة لنا بما يسود العالم من فوضى ؟ فكيف تتهمنا ؟

قلت: بل أنتم مسئولون، فإن الله وضع للعالم نظاما جيدا يكفل له سعادته، ويجعل قويه عونا لضعيفه، وغنيه برا بفقيره، وحذر من إتباع الأهواء، واقتراف المظالم واعتداء الحدود .

ووعد على ذلك خير الدنيا والآخرة فقال سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل٩٧)

فإذا جاء الناس فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وتعاونوا على العدوان بدل أن يتعاونوا على التقوى، فكيف يشكون ربهم إذا حصدوا المر من آثامهم ؟

(1) أسلوب التهكم والاستهزاء أو التقليل من شأن المخالف لا يخدم الحوار الناشد للحق.. فتنبه.

إن أغلب ما أحدق بالعالم من شرور يرجع إلى شروده عن الصراط المستقيم، وفي هذا يقول الله جل شأنه:﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ (الشورى ٣٠)

إن الصِّدِّيق رضي الله عنه جرد جيشا لقتال مانعي الزكاة، وبهذا المسلك الراشد أقر الحقوق وكبح الأثرة ونفذ الإسلام، فإذا تولى غيره فلم يتأس به في صنيعه كان الواجب على النقاد أن يلوموا الأقدار التي ملأت الحياة بالبؤس ؟!

قال: ماذا تعنى ؟

قلت: أعنى أن شرائع الله كافية لإراحة الجماهير، ولكنكم بدل أن تلوموا من عطلها، تجرأتم على الله واتهمتم دينه وفعله !!

ومن خسة بعض الناس أن يلعن السماء إذا فسدت الأرض، وبدلا من أن يقوم بواجبه في تغيير الفوضى وإقامة الحق يثرثر بكلام طويل عن الدين ورب الدين !!

ويقول أيضا في موضع آخر من كتابه :" لقد آن الأوان لتهتك الأستار عن أدعياء التقدم، الذين يمثلون في الواقع ارتكاسا إنسانيا إلى جاهلية عديمة الشرف والخير، مبتوتة الصلة بالعقل وذكائه والعلم وكشوفه ، ربما شك بعض الناس في حقيقة الدين الذي يعتنقه أو في جدواه عليه، فإذا ساور هذا الخاطر أحدا من خلق الله، فإن العربي آخر امرئ يعرض له هذا الظن، بل يقرب من المستحيل أن يساوره ، ذلك أن فضل الإسلام على العرب كفضل الضياء والماء على الزرع ... قد تكون بعض العقائد عقاقير مخدرة للنشاط البشرى، لكن الإسلام لما جاء العرب شحذهم وأثار عقولهم، ووحد صفهم، وطار بهم إلى آفاق مادية وأدبية لم يحلم بها آباؤهم ولا تخيلها أصدقاؤهم أو أعداؤهم، ومضى العرب في طريق المجد الذي شقه الإسلام لهم فعرفهم للعالم وكان قبل يجهلهم، وأفاءوا على ماضيه القريب ما لا ينكره إلا متعصب كفور !

وارتبطت مكانة العرب الذاتية والعالمية بهذا الدين، فهم يتقهقرون إذا تخلوا عنه ويستباح حماهم . وهم يرتقون ويتقدمون إذا تشبثوا به وتحترم حقوقهم .

على عكس ما عرف في أمم أخرى لم تستطع التحليق إلا بعدما تخففت من مواريثها الدينية كُلا أو جزءًا !! ... إن الإسلام بالنسبة للعروبة ولىّ نعمتها وصانع حياتها .

وقد اعترف مسيو " جارودية " وهو شيوعي فرنسي، عاش ردحا من الزمان في جبهة التحرير الجزائرية بأن الدين وحده هو الذي أوقد شرر هذا الكفاح العزيز الغالي، وأن الإسلام يستحيل أن يوصف بأنه مخدر الشعوب .

والإسلام لا يجعل من العرب شعبا مختارا يفضل غيره بسلالة أو دم خاص، كلا كلا، إن الله اختار لعباده تعاليم راشدة وشرائع عادلة، ثم وكل إلى العرب أن يحملوا هذه التعاليم والشرائع ليعملوا بها وليعلموها من شاء." (١)

(١) ينظر: قذائف الحق صـ ١٩٥ وما بعدها

وأختم برائعة من روائع الرد العلمي التي تهدم أصول الإلحاد وتــأتي عليــه مــن الجذور، وذلك للدكتور أيمن المصري حيث يقول:" تقوم النظرة الغربية للكــون والحياة على الإلحاد، حتى لو ادعى الكثيرون أنهم مؤمنون بالله، وذلك أنهم إمــا ينفون وجود المولى سبحانه وتعالى أو يشلون وجوده، فإلههم إما إلــه غائــب أو مشلول، فهم يدورون بين إلحادين إلحاد نفي أو إلحاد تعطيل، وكلاهما إلحاد.[١]

أما الملحدون النفاة الذين ينكرون وجود الباري ســبحانه، فــيرون أن هــذا الوجود بأجرامه ومخلوقاته وأحيائه إنما نشأ صدفة، ويمضى إلى غير غاية، ووصــل لما وصل له بسلسة من الأفعال وردود الأفعال العشوائية. وهؤلاء هم الذين كانوا يسمون بالدهريين عند علماء المسلمين. فيقول جوليان هكسلي:

"لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة الــتي كتبوهــا قصيدة من قصائد شكسبير! فكذلك كان الكــون الموجــود الآن نتيجــة لعمليات عمياء، ظلت تدور في (المادة) لبلايين السنين"[٢].

ويعبر برتراند رسل الفيلسوف الملحد الشهير عن هذه النظرة اللاعقلية الموحشة البغيضة بقوله:

"والإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف، إن بدأه ونــشوءه وأمانيــه ومخاوفه وحبه وعقائده كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نظــام الذرة، والقبر ينهى حياة الإنسان. ولا تستطيع أية قوة إحياءه مرة أخــرى. إن هذه المجهودات الطويلة والتضحيات والأفكــار الجميلــة والبطــولات العبقرية كلها سوف تدفن تحت أنقاض الكون، ولو لم تكن هذه الأفكــار

---

[١] هذا هو التقسيم السائد والمعروف للإلحاد عند كل الدارسين ، ولا أعلم أحدا سبقني في التقسيم الذي ذهبت إليه للإلحاد.

[٢] ينظر: الإسلام يتحدى (١ / ٨٥)

قطعية فإنها أقرب ما تكون إلى الحقيقة، حتى إن أية فلسفة تحاول إنكارها ستلقى فنائها تلقائياً".

ويعلق وحيد الدين خان على قول رسل بقوله:"ويكاد هذا الاقتباس أن يكون خلاصة الفكر المادي فالكون -في ضوء هذا الفكر المادي- يكاد يفقد أهدافه ولا يبقى غير الظلام الحالك؛ الظلام الذي تتلاشى فيه معايير الخير والشر حتى إن إبادة الناس بالقنابل لا تعد ظلماً لأنهم سوف يلقون حتفهم على أية حال يوما ما. أما الفكر الديني فهو فكر الضوء والأمل. الموت والحياة مرتبطان فيه بأهداف معينة وكل القيم والأفكار الإنسانية السامية تجد لها مكانا فيه" [١].

كذلك تأثرت الاتجاهات المادية اللا دينية أيما تأثر بنظرية دارون في النشوء والارتقاء، وإن كان دارون لم ينف وجود المولى سبحانه، ولكنه زعم أن تطور الإنسان من كائن وحيد الخلية بسيط إلى الإنسان الحالي لا يحتاج في تفسيره لافتراض وجود الله، حيث يقول:"إن تفسير الحياة بتدخل الله يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت "!

وحيث يقول: "إن الطبيعة تخلق كل شيء، ولا حد لقدرتها " [٢] !

وأن هذا التطور تم عشوائياً، وأن البقاء كان للكائنات الأقوى أو الأقدر تكيفاً على البقاء، التي استطاعت البقاء عبر الصراع مع غيرها من الكائنات، والتكيف مع عوامل الطبيعة.

يقول الدكتور المسيري:"ويمكن القول بأن الداروينية هي النموذج المعرفي الكامن وراء معظم الفلسفات العلمانية الشاملة، إن لم يكن كله."

وقد يحاول بعض هؤلاء اللادينيين الدهريين أن يتجنب معاداة الدين، ولكنك لو سألته عن مرجعياته وعقائده، فلن تجد للباري سبحانه وتعالى أي وجود فيها.

---

[١] ينظر: الإسلام يتحدى (١ / ٤٦ و٤٧).

[٢] ينظر: جاهلية القرن العشرين. ص ٤٠.

فالاتحاد السوفييتي السابق –وهو تجسيد اللادينية الشاملة- كان يزعم أنه يسمح بحرية الأديان، ويترك بعض المساجد تعمل للدعاية، وللدوران بالسياح عليها، رغم حربه الضروس على الدين عموماً والإسلام خصوصاً عقيدة وعملاً.

ولذلك يؤكد الدكتور عبد الوهاب المسيري –رحمه الله، وهو الماركسي السابق- على أهمية النظر لمرجعية أصحاب العلمانية الشاملة بغض النظر عن أقوالهم وأفعالهم. فيقول:"وفي تصوُّرنا أن أفضل طريقة لتناول قضية العلمانية والعلمنة هي قضية المرجعية (كامنة أم متجاوزة). فالعلمانية (الشاملة) قد لا تكون إلحادية أو معادية للإنسان على مستوى القول والنموذج المعلن (فهي قد لا تنكر وجود الخالق أو مركزية الإنسان في الكون أو القيم المطلقة، الإنسانية أو الأخلاقية أو الدينية، بشكل صريح ومباشر). ولكنها على المستوى النماذجي الفعال ومستوى المرجعية النهائية، تستبعد الإله، وأية مطلقات، من عملية الحصول على المعرفة ومن عملية صياغة المنظومات الأخلاقية، كما تستبعد الإنسان من مركز الكون بشراسة وبحدة وتنكر عليه مركزيته وحريته" [1]

وقد لاحظت شخصياً أن العديد من الشيوعيين يتجنبون الحديث عن الدين تماماً، بل إن بعضهم قد يظهر احتراماً للدين أو يمارس بعض الشعائر، والبعض إذا أحرجته في النقاش يتهرب بأن النقاش حول الدين له المتخصصون فيه، لأنه يعلم أن الناس بطبيعتهم ينفرون من هذه المادية الكئيبة المنافية للفطرة.

وهذا ما يلفت الانتباه له الدكتور المسيري، حيث يقول عند كلامه عن أن العلمانية الجزئية ما هي إلا مرحلة في متتالية تؤدي للعلمانية الشاملة:"ومع هذا، تجب الإشارة إلى بعض الأفراد ممن يتبنون نماذج علمانية شاملة ويستخدمون

([1]) ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع: العلمانية الشاملة- الباب التاسع: العلمانية الشاملة: تاريخ موجز وتعريف- العلمانية الشاملة: تعريف (١ / ٢١٤ و٢١٥).

ديباجات جزئية عن وعي وبدهاء مقصود، لأن الناس ينفرون بفطرتهم الإنسانية من العلمانية الشاملة بسبب وحشيتها وعدميتها" (١).

ولكني (الكلام للدكتور أيمن المصري) أقول للذين يرون أن هذا الكون قد وجد صدفة، بتفاعل بعض العناصر، التي كانت موجودة في ظروف معينة ونسب معينة وأزمنة معينة، وكذلك الحياة نشأت بتفاعل بعض العناصر في ظروف معينة فجاءت صدفة.

أقول له: إذا كان كل هذا قد وجد صدفة، فمن الذي أوجد الصدفة؟ من الذي أوجد العناصر اللازمة بالنسبة اللازمة في الأحوال الضرورية اللازمة في الأزمنة اللازمة بالحركات اللازمة بالشروط اللازمة لتلك الصدفة؟

إن قال: لا أعلم. قلنا له: فلم علمت أن الكون قد وجد صدفة؟

وإن قال: إنما أوجد الصدفة صدفة قبلها. قلنا له: نحن في حاجة لعدد ضخم من الصدف، فكل عنصر من العناصر نشأ صدفة، وكذلك الظروف الضرورية من الحرارة والضغط والحركة والمكان والزمان والسرعة واتجاه السير... إلخ كل منها أوجدته صدفة، ثم جاءت صدفة فجمعت كل هذه الصدف، ثم جاءت صدفة أخرى فجعلتها تتفاعل مع بعضها ؟

ثم لا بد أن تتسلسل الأسئلة: فمن أوجد صدفة الصدفة ؟ ومن أوجد صدفة صدفة الصدفة؟ في عبث لا متناهي من الضلال. تتميز به الحضارة الغربية الصليبية المعاصرة، التي تزعم تقديس العقل، بينما هي في حقيقة أمرها تلهث مسعورة وراء أهوائها ورغباتها.

---

(١) ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع: العلمانية الشاملة- الباب الأول: إشكالية تعريف العلمانية- إشكالية العلمانيتين: علمانية جزئية وعلمانية شاملة (١ / ١٢٦).

ثم نقول له: نحن لم نسألك -فقط- كيف توفرت ظروف الصدفة؟ ولكن نسألك -أيضاً وبإلحاح- من أنشأ الصدفة؟ من هو المتسبب في إيجادها؟ أتلكم العناصر والظروف التي وفرت الصدفة أوجدت نفسها؟ أم أوجدها موجد غيرها؟؟؟ وصدق الله العظيم: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾.

وبنفس المنطق يقال لأمثال جوليان هكسلي صاحب مثال القردة الستة والآلة الكاتبة؛ من الذي أوجد القردة الستة؟ ومن الذي أوجد الآلة الكاتبة؟ ومن الذي جمعهم في مكان واحد؟ ومن الذي مد في عمر القردة لبلايين السنين؟ ومن الذي منح الآلة الكاتبة الصلابة حتى تستمر في العمل لبلايين السنين؟ دون أن تتلف أو تحتاج لصيانة أوتبلى أو تنبري من شدة الطرق عليها؟ ومن الذي أمدها بالورق؟ وأدخله فيها؟ ومن الذي أمدها بالحبر؟ وداوم على إمدادها به؟ ومن الذي أجبر القردة على البقاء يطرقون على الآلة الكاتبة لملايين السنين دون أن يملوا ويفروا؟ هل كان معهم مراقب يجبرهم على العمل المتواصل؟ ومن هو؟

ثم إذا كان العمل لمدة ملايين السنين قد أنتج قصيدة واحدة أو احتمال قصيدة -في زعمك- لشكسبير، فكم من الزمن سيحتاج لإنتاج كل قصائده؟ وكم من الزمن يلزم لإنتاج كل قصائد الشعراء الإنجليز؟ وكم من الزمن يلزم لإنتاج شعر كل شعراء الدنيا؟ وكم من الزمن يلزم لإنتاج كل الأدب في الدنيا؟ وكم؟ وكم؟ وكم؟.....؟

ثم إذا كنت تقول إن بلايين النسخ التي لا معنى لها وجدت من بينها ورقة واحدة فيها قصيدة لشكسبير، فيلزم من كلامك أن إنتاج عالم واحد بالصدفة لا بد أن يصاحبه بلايين العوالم وبلايين المخلوقات المعطوبة الفاسدة المحطمة، وأن بلايين النسخ الفاسدة هذه هي الغالبة الطاغية، فأين هي؟؟ وصدق الله وكذبتَ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ

سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

ثم يقال لمن قال إن العالم حدث ويجري بالصدفة وبطريقة آلية: أنت أولى أن يقال لك إن ما تزعمه نظريات عميقة وأفكاراً رصينةً ليست إلا مجرد أصوات صدرت من فمك، أو حروف على ورق تجمعت بالصدفة فظهرت كما تنطقها، أو تكتبها، وحقيقتها عبث لا فائدة منه ولا هدف ولا غاية، ولم تقصدها، بل والأفكار التي في رأسك ما هي إلا مجموعة من التفاعلات الكيماوية العشوائية الآلية حدثت في خلايا الدماغ العصبية بطريق الصدفة، فأنتجت هذا الهراء.

أفهذا الكون المحكم الصنع المحير المبهر حدث صدفة؟ وأنت فكرك رصين مقصود، نشأ عن نظر متأن وقواعد محكمة ومقدمات يقينية ونتائج لازمة، وهو فكر ذو غاية وهدف يسبر أغوار الحقيقة! لماذا يكون فكرك استثناءً عن الكون؟

ثم نقول له: لو افترضنا أنك اكتشفت يد لص، وقد اندست في جيبك، فأمسكت بها وبه متلبساً بجريمة السرقة، ثم لما علم اللص أنك من المجادلين بالصدفة، قال لك: إنما دخلت يدي لجيبك بالصدفة. فماذا أنت قائل له؟ هل تقول له: مرحباً بأخي في العقيدة؟ أم تسوقه للشرطة؟ وإذا سألك سائل: لماذا تسوقه للشرطة؟ فماذا أنت قائل له؟ أفتقول له: لكي تأخذ العدالة مجراها من هذا اللص الأثيم، الذي لا يعرف خلقاً ولا قيماً. فأية عدالة وأي خلق وأية قيم هذه؟

العدالة تتطلب حقاً مسلوباً لتوصله لمستحقه، فما هو الحق؟ وما هو المستحق؟ في عالم كله صدفة في صدفة وعبث في عبث.

ثم إن العدالة تتطلب شريعة تنفذها، والشريعة تتطلب أخلاقاً وقيماً تنتجها، فأي أخلاق وأية قيم إذا كان كل شيء خبط عشواء وصدفة، وليس هناك قيمة ولا مرجعية عندك إلا واقعك الذي حدث بالصدفة.

وقد يماحك عبد الصدفة فيقول: إن الشريعة والأخلاق هي ما اتفق عليه العقلاء. فهذه إجابة تثير أسئلة أكثر، منها على سبيل الإيجاز؛ على ماذا اتفق العقلاء؟ هل اتفقوا على خلق العالم بالصدفة؟ ثم كيف يتفقون؟ بالإجماع أم بأغلبية الناخبين الديمقراطية؟ لو كان الأمر بالديمقراطية فمعنى هذا أن ذلك اللص الذي ذكرناه، لو كان معه ثلاثة آخرون وقابلوا عبد الصدفة في صحراء ليس فيها غيرهم، فمن حقهم أن يسلبوه ماله، وربما ملابسه أيضاً، وحينئذ سيعدونها من محاسن الصدف، أو رب صدفة خير من ألف ميعاد!!

ثم إن العدالة تتطلب فصلاً بين الخصومات، وهذا يتطلب سلطة محايدة لا تتأثر بالأهواء والنزعات ولا الميول لتفصل بين الموجودات، ولا يتحقق ذلك إلا في المولى سبحانه وتعالى المنزه عن النقائص.

ثم إن الحكم على الشيء -كما يقولون- فرع عن تصوره، ولذا لا يمكن للحاكم أن يحكم في قضية إلا إذا تصورها، وكلما كان تصوره أقرب للحقيقة كلما اقترب حكمه من الصواب، والعكس بالعكس، وحيث أن الإنسان -باتفاق الملحدين والمؤمنين- يجهل عن نفسه بل وعن سائر الكون-بأضعاف رهيبة- أكثر مما يعلم، لذا فإن القادر الوحيد على الحكم الصحيح هو المولى سبحانه وتعالى. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [1]

"٢" وكذلك أقول لمن يقول إن هذا الوجود والحياة نشئا بلا هدف ولا غاية، له: أنت أيضاً كلامك هذا -الذي هو جزء من هذا الوجود- يلزمك أن يكون عبثاً بلا غاية ولا قصد، وليس برأي حكيم ولا نظرية متماسكة، بل عبث وهراء بغير قصد ولا هدف؟

(1) للمزيد من التفصيل في الرد على القول بتكون العالم بالصدفة: الإسلام يتحدى (١/ ٨٤ وما بعدها)

ثم لماذا نراك متحمساً تضيع عمرك ووقتك في الدفاع عن نظرياتك ونشرها والرد على مخالفيها؟ إن كان الأمر كله عبث في عبث. لم لا تدع مخالفيك يعبثون مع العابثين؟

ولذلك يعلق الدكتور المسيري على فلاسفة العبث وما بعد الحداثة بقوله: "ولكن كيف تأتّى لفلاسفة ما بعد الحداثة أن يدركوا غياب المرجعية والمعيارية وهيمنة القوة وسيطرة الصيرورة دون الاستناد إلى مرجعية ما ومعيارية ما ومعرفة بعالم عادل فيه كليات ثابتة؟ وكيف يكتبون وهم يعرفون أنهم لن يصلوا إلى شيء؟ لم لا يحجمون عن الكتابة والتفكير وكتابة المجلدات الفلسفية المعقدة؟ أليس من الأجدى لهم أن يبقوا في عالم الصيرورة الأكيدة الحسية ويحتسوا أفخر الخمور ويضاجعوا أجمل النساء والغلمان كما فعل الرومان في أواخر أيام الإمبراطورية، وكما يفعل الوثنيون العدميون عندما يشعرون بالعدمية تُطبق عليهم؟ ففي الخمر والنساء صيرورة ويقين الغياب والعدم. لا يُوجَد رد على هذا داخل النظام ما بعد الحداثي وإن كان دريدا قد حاول مرة الإجابة بقوله بأنه يعترف بأنه يقف داخل النظام الميتافيزيقي ويدرك هذا، أما الآخرون فيقفون في نظمهم الميتافيزيقية ولا يدركون هذه الحقيقة. وهذا هراء إذ تظل المشكلة قائمة: لم الكتابة المضنية إذن، وسهر الليالي، بدلاً من الصيرورة السهلة والانزلاق المستمر؟ من أجل مَنْ كل هذا العناء وكل هذه المعاناة؟" [1]

وأزيد على قول الدكتور المسيري رحمه الله؛ أن هذا الانزلاق للملذات الشهوانية هو حالهم، أو هو ما يؤولون له، وهو ما يبتغونه.

([1]) ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- المجلد الأول: الإطار النظري- الجزء الرابع: العلمانية الشاملة- الباب السابع: الثنائية الصلبة والسيولة الشاملة وما بعد الحداثة- ما بعد الحداثة- المقولات الأساسية لرؤية دعاة ما بعد الحداثة (١ / ١٧٧).

ولذلك شهد عليهم الدكتور المسيري شهادة الشاهد الخبير المعاين حين قال في كتابه (رحلتي الفكرية- الجذور والبذور والثمر):"كنت قد بدأت ألاحظ أن السلوك الشخصي للرفاق كان متناقضاً مع أي نوع من أنواع المثاليات الدينية أو الإنسانية، وأن كمية النرجسية عند بعضهم كانت ضخمة للغاية. وأنا لا أمانع في وجود قدر من النرجسية عند البشر، فهذا أمر أساسي بالنسبة لهم، وخصوصا بالنسبة للثائر، فالنرجسية آلية نفسية يدافع من خلالها عن نفسه ضد مجتمع يود ابتلاعه. ولكن النرجسية التي لاحظتها في كثير من الرفاق كانت بالفعل متطرفة، والحريات الخلقية التي كانوا يسمحون لأنفسهم بها كانت كاملة، أي أنهم في واقع الأمر كانوا شخصيات نيتشوية داروينية، لا علاقة لها بالماركسية ولا بأي منظومة أخلاقية، خاصة أن بعضهم كانت ماركسيته تنبع من حقد طبقي أعمى وليس من إيمان بضرورة إقامة العدل في الأرض. بل كثيراً ما كنت أشعر أن بعضهم كان ماركسياً بحكم وضعه الطبقي وأنه لو سنحت الفرصة أمامه للفرار من طبقته والانضمام للطبقات المستغلة الظالمة لفعل دون تردد وطلق ماركسيته طلاقا بائناً. لكل هذا قدمت استقالتي" (١)

"٣" وكذلك الذين يقولون إن الإنسان نشأ تبعاً لنظرية النشوء والارتقاء من كائنات بسيطة تطورت بلا هدف ولا غاية ولا إرادة حتى وصلت للإنسان الحالي.

أقول و أسألهم: لو أن هناك كائنات تطورت من بعضها، فهل هي طورت نفسها؟ أم هناك من طورها؟ ومن هو؟؟

ولو أن مصنعاً مشهوراً ينتج كل سنة طرازاً جديداً من منتج معين (سيارة- حاسوب- مذياع..)، وعادة يكون بين الطرز المتتالية تشابه، كما أن المصنع يضع شعاره على كل طراز، فهل يمكن أن يكون التشابه بين الطرز المتتالية دليلاً

---

(١) ينظر: بل هي حرب على الإسلام ص ١٨٤.

على أن كل طراز قد نشأ وتطور من الطراز الذي قبله، أم يكون دليلاً على أن جهة الإنتاج واحدة؟

ثم لو جاء أفاق محتال لصاحب ذلك المصنع، فخاصمه أمام المحكمة بألا حق له في احتكار هذه المنتجات والاستئثار بفوائدها التجارية والقانونية، لأن هذه المنتجات نشأت بفعل تلاطم وتصادم عوامل عديدة خبط عشواء بلا ترتيب ولا قصد ولا غاية ولا سعي حثيث ولا إرادة في إنتاجها، وبالتالي فإن نسبتها لذلك المصنع وصاحبه وعدمها سواء، كما أن عدم نسبتها للمحتال الأفاق ونسبتها سواء، فهل يمكن أن تقبل دعوى ذلك المحتال الأفاق أمام أي قاض، حتى لو كان ذلك القاضي ملحداً مادياً متعصباً لنظرية دارون في النشوء والارتقاء.

ثم السؤال الأهم؛ أليس المولى -سبحانه وتعالى- بقادر على أن يخلق آدم في الجنة، ثم يترله للدنيا في أي وقت يشاء، سواء تطورت الكائنات أم لم تتطور؟

إذن القضية المحورية بيننا وبينكم هي في المولى سبحانه وتعالى، الذي تنكرون وجوده، أو تعطلون صفاته.

هذه هي القضية، وهي قضية البشرية في صراع الإسلام والكفر من بدايتها لنهايتها.

الخــاتمــة

وبعد أَنِ استبانت الحقائق، وتجلَّت الدقائق، وانتشيْنا من عبقِهما، الحلول الواقيــة والعلاج، حامدين الله –سبحانه– في السُّرى والإدْلاج، نُنِيخُ الآن مطايانا بــأهم النتائج وبعض التوصيات:

أولا : أهم النتائج:

١- أصل الإلحاد في كلام العرب: الميل عن القصد، العُدُول عن الاستقامة.

٢- كلمة الإلحاد جاءت في القرآن بمعنى الشرك والتكذيب

٣- سجل القرآن الكريم معالم الإلحاد الأولى وحكاها تفصيلا وتحذيرا فإبليس الملعون هو أبو الملحدين.

٤- فلاسفة اليونان والإغريق هم من أسسوا لمنهج الشك الإلحادي ، فكــانوا يشُكُّون في الثوابت والمُسَلَّمات، شك من أجل الشك

٥- الإلحاد عمليا بدأه إبليس لكنه لم يُسَمَّى إلحادا بل سمي: كُفرا، وفــسوقا، وإباءً لأمر الله تعالى، واستكبارا، وضلالا وسمي فيما بعد زندقة وإلحادا.

٦- الإلحاد يطلق كوصف لأي موقف فكري لشخص لا يؤمن بوجود إله.

٧- للإلحاد أنواع عديدة منها (إلحاد التكبر و إلحاد الإشراك وإلحاد الفكـــر وإلحاد العقل وإلحاد الجهل والرياء).

٨- الإلحاد المعاصر يمكن حصر بواعثه في انتشار الفكر العلماني وتخطيطـــات المحافل الماسونية.

٩- الإلحاد المعاصر في بلاد الإسلام يمكن تفسيره على أنــه الموجــة الثانيــة للفصل بين الإسلام والحياة بعد فشل المحاولة الأولى التي حــاول بعــض المستغربين استيرادها من النموذج الأوروبي من خلال العلمانية والليبرالية التي انتشرت بعد الثورة الصناعية.

١٠- الملحد إنسان تائه يحتاج لمن يرشده إلى الصواب.

١١- عقائد الملحدين يمكن اختزالها في كلمة واحدة (الانحلال).

١٢- الإلحاد مرض يحتاج إلى وقاية وعلاج، كباقي الأمراض.

ثانيا : أهم التوصيات:

١- العمل على استنهاض همم العلماء الربانيين والدعاة المخلصين للقيام بدورهم الراشد في تحصين الأمة من الأفكار المنحرفة والآراء المتطرفة والرد على أصحابها بالأدلة النقلية والعقلية.

٢- أهمية قيام الأسرة بدورها الرائد في التربية، والحفاظ على النشء من التيارات الفكرية المنحرفة، والآراء الشاذة.

٣- توعية أفراد المجتمع بأهمية العقيدة الإسلامية، وحثهم على التمسك بها قلبا وقالبا وعدم التنازل عن ثوابتها أبدا.

٤- التركيز على القضايا الفكرية والعلمية في الخطب والمحاضرات الدينية.

٥- قيام طلاب العلم وحملته بدورهم المنوط بهم، وإحساسهم بحجم المسئولية العظيمة التي حملوها للحفاظ على المجتمع والنهوض به.

٦- إحياء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين أفراد المجتمع، وتحمل تبعاتها مهما تكلف الأمر.

وبعد؛ فهذا آخر كلامي، كتبته وأنا أعلم أني

أموت ويبقى ما كتبته فيا ليت من يقرأ كتابي دعا لِيَا
لعل الإلـه يمن بلطفه ويرحم تقصيري وسوء فِعَالِيَا

اللهم إني أسألك عفوك وجودك وحلمك وكرمك يارب العالمين

كتبه الطامع في عفو ربه الكريم

أحمد بن خالد الطحان

مكة المكرمة

قائمة الموضوعات